بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل

إلى

البداية والنهاية

كتبه وعلق عليه

الدكتور محيي الدين ديب مستو

راجعه وأضاف عليه

الدكتور بشار عواد معروف

(١)

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي خلق فسَوَّى ، وقدَّر فهدى ، وجمع فأوعى .

والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى ، وعلى رسوله محمد بن عبد الله المجتبى ، وآله الشُّرفا ، وأصحابه نجوم الهُدَى ورجوم العِدَى ، ومن تبعهم بإحسان ووفَّى ووفَى .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الأسماء الحسنى ، أمات وأحيا ، وجعل لكل أمة تاريخاً وأجلاً مسمًّى . وأشهد أنَّ سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله وحبيبه ، صاحب المقام المحمود والشفاعة الكبرى ، المبعوث إلى الخليقة جميعاً بالإنذار والبُشْرى .

وبعد :

● **أهمية العمل ومبرراته :**

فإن النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري قد شهد صحوة إسلامية فكرية وثقافية ، واهتماماً ملحوظاً بالكتب المطبوعة والمحقَّقة ، على وفق أحدث الطرق الطباعية الحديثة ، والإخراج الفني المتطور ، والتجليد المتقن الفاخر ، وظهرت أمَّات الكتب في التفسير والحديث والسيرة والتاريخ والتراجم ، موثَّقة ومفهرسة ، وبأجمل شكل وبأصدق مضمون ، مثل : تهذيب الكمال للمِزي ، وجامع الأصول ؛ لابن الأثير ، وزاد المعاد ؛ لابن قيم الجوزية ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ، والتفسير والتاريخ ؛ للإمام الطبري ، وغيرها .

وكان النصح إلى أصحاب دور النشر الكبيرة أن يتطلعوا إلى الكتب والمراجع في جميع مناحي الثقافة الإسلامية ، وإحياء مخطوطاتها المنسية ، وإعادة تحقيق الكتب المطبوعة من غير توثيق ولا تعليق ولا فهارس ، والاستفادة من المخطوطات المشرقية ، والمخطوطات المكتشفة حديثاً بعد أن كانت ضائعة أو مجهولة .

على أنَّه يتعين علينا أن نشير إلى أن العرب المسلمين حين تنبهوا إلى أهمية تراثهم وبدؤوا بنشره منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، كانت المطابع الكبرى تعهد إلى مصححين من كبار العلماء لضبط النصوص وتصحيحها ، فأخرجت مطبعة بولاق بمصر نفائس من هذا التراث وتبعتها دار الكتب المصرية وغيرها من المؤسسات المعتبرة .

وتحقيق المخطوطات والعناية بالنصوص علم قائم بذاته ، أقام العلماء المسلمون منذ أمد بعيد قواعده على أحسن وجه ، فأخرجوا لنا ، ومنذ عصر المخطوطات ، نماذج رائعة في التحقيق والتدقيق ، نذكر منها كتابين مهمين هما نموذج لعشرات من نظرائهما ؛ موطأ الإمام مالك برواية يحيى بن يحيى الليثي ، وصحيح البخاري .

فقد عُني العلامة جمال الدين محمد بن يوسف المعروف بابن مَسْدي الأندلسي الغرناطي نزيل مكة المكرمة ودفينها « ٥٩٩ ـ ٦٦٣هـ » برواية الليثي من الموطأ فأخذه عن العديد من شيوخه ببلاد شتى وأسانيد كثيرة ، وقابل بين نسخه وعَمِلَ لنفسه منه نسخة محققة مدققة مستندة إلى العديد من الروايات ، ورمز لكل رواية من الروايات برمز معين ذكره في صدر نسخته ، وثبت في حواشيها الاختلافات بينها[١] .

وعني بصحيح البخاري عالمان جليلان هما : اليونيني ، وابن مالك صاحب الألفية فجمعا روايات الصحيح وقابلا بينها ورجحا في القراءات ، وأثبتا الاختلافات في الحواشي ، فكانت هذه النسخة من أعظم نسخ صحيح البخاري وأكثرها صحة وضبطاً وإتقاناً ، وهي التي انتشرت فيما بعد ، وطبع السلطان عبد الحميد يرحمه الله « الصحيح » استناداً إلى النسخة اليونينية ، فهي إلى يوم الناس هذا أصح طبعة لهذا الكتاب وأدقها وأتقنها وكل الذين نشروا الصحيح عيال عليها ، ولا أظن محققاً من محققي اليوم له القدرة على تجاوزها .

على أن انتشار الطباعة الحديثة ويُسْرها شجع الكثير من أصحاب الضمائر الضعيفة ممن يتصدون لنشر الكتب أو يدعون المعرفة بتحقيق النصوص إلى إخراج كتب مليئة بالتصحيف والتحريف والسقط ، أو سرقة الكتب المحققة تحقيقاً علمياً طمعاً بالربح العاجل ، فتُسلب حقوق المحققين المعنوية ، وحقوق الناشرين الجادين المادية ، فيسيؤون إلى كل عمل جاد وكل ناشر مخلص ، وقيل في القواعد الاقتصادية : « إن العملة الرديئة تطرد العملة الصعبة » ، نسأل الله الستر والعافية .

و « دار ابن كثير » للطباعة والنشر والتوزيع التي تأسست عام ١٩٨٤م في دمشق وبيروت ، من دور النشر الكبيرة والجادة في خدمة الثقافة الإسلامية ، وقد تطلعت إلى الإسهام في إعادة تحقيق ونشر كتب أمّات[٢] في بابتها ، ولعل اسمها كان أكبر مُحفِّز للاضطلاع بتحقيق كتاب « البداية والنهاية » ، إذ هو من أعظم آثار الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ ، ولما يمتاز به من التأريخ

---

(١) انظر وصفها في مقدمة الدكتور بشار عواد لطبعته من موطأ مالك برواية الليثي ، ط٢ ، دار الغرب ، بيروت ١٩٩٨م جـ١ ص١٢ ـ ٢٢ .

(٢) ومنها أطراف مسند الإمام أحمد ؛ لابن حجر (١/ ١٠) ، والمفهم في شرح ما أشكل من تلخيص صحيح مسلم ؛ لأبي العباس القرطبي (١/ ٧) . وفتح القدير في التفسير ؛ للشوكاني (١/ ٦) .

الإسلامي العام ، والتأريخ لدمشق الشام في عصورها المختلفة بعامة ، وفي عصر المؤلف بخاصة ، وقد طبع ـ قديماً ـ طبعة واحدة في مطبعة السعادة ، وهي طبعة غير محققة مليئة بالتصحيف والتحريف والسقط والخلط ، مما قلّل من قيمتها وجعل الاعتماد عليها يسيء إلى البحث العلمي الرصين ، وجل النشرات التي تلتها كانت تعتمدها على الرغم من ادعائها الاعتماد على مخطوطات ، ولذلك تشوَّف إلى هذا العمل العلمي الكبير جمهرة من العلماء والدكاترة بإشراف الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ـ يرحمه الله ـ ، وإدارة وتمويل الأستاذ علي مستو صاحب دار ابن كثير ـ حفظه الله ـ .

وفي الأول من شهر شعبان المكرم سنة ١٤٠٥هـ . تم الاجتماع في قرية « بسيمة » من وادي بردى ، وحضره : الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ـ رحمه الله ـ ، والدكتور علي أبو زيد ، والدكتور محيي الدين ديب مستو ، والدكتور رياض مراد ، والأستاذ محمود الأرناؤوط ، والدكتور نزار أباظة ، والأستاذ محمد حسان عبيد ، والأستاذ حسن مروة ، والأستاذ أكرم البوشي ، والأستاذ إبراهيم الزيبق ، والدكتور مأمون الصاغرجي ، والأستاذ ياسين السَّواس ، والأستاذ صلاح محمد الخيمي ـ رحمه الله ـ ، والأستاذ محمد ديب مستو ، والأستاذ علي ديب مستو .

● **خطة العمل ومنهج التحقيق :**

وزَّع فضيلة الشيخ عبد القادر ـ يرحمه الله ـ خطة العمل المقترحة على الأساتذة المشاركين في التحقيق ، وهي كما يلي :

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد :

فإنَّ أوَّل ما يجب أن يكون واضحاً لكل الإخوة من الأساتذة المشاركين في تحقيق الكتاب : أن هذا المنهج لم يُوضع لتقييد المحقق في الجزء الذي وكل إليه تحقيقه ، وإنما أُريد منه أن يكون جامعاً لجهود المحقِّقين الأفاضل ، لكي تنصبَّ جميع الجهود في جهة واحدة في الشكل والمضمون بالقدر المستطاع ، حرصاً على نجاح العمل في الكتاب من الوجهتين العلمية والفنية ، لأن الكتاب عند ظهوره ـ إن شاء الله ـ سيكون مرتبطاً بأسماء المشاركين فيه ، مما يدلُّ على أن نجاحه هو نجاح الجميع ، ومن هنا كانت الرغبة في أن يتناول هذا المنهج جميع ما يتصل بتحقيق الكتاب وإخراجه على النحو التالي :

أولًا : فيما يتصل بالنسخ الخطية :

تعتمد نسخة المكتبة الأحمدية بحلب كنسخة رئيسة في العمل ، وقد اصطلح على تسميتها

« النسخة الأم » ، وذلك لكونها أتم النسخ من جهة ، ولكونها قوبلت على أصل قوبل على نسخة المؤلف من جهة أخرى ، وأخيراً لاعتبارها نسخة شامية المصدر ، لذا تجري عملية مقابلة المطبوع عليها لتصحيح ما وقع في المطبوع من الأخطاء ، واستدراك ما حصل فيها من السقط ، والإشارة إلى ما ورد فيها من الزيادة على النسخة المطبوعة من الكتاب ، وبعد ذلك تجري عملية مقابلة النسخة الأحمدية على النسخة الأخرى : نسخة برلين ، والنسخة الثالثة : نسخة دار الكتب الظاهرية ، وذلك في الأجزاء التي توفَّرت لها أوراق من النسختين المذكورتين ، فيثبت ما قد يرد فيها من الزيادة بين حاصرتين هكذا [ ] ، ويشار إلى ما وقع فيها من السقط والتحريف والتصحيف والاختلاف ، وهذا الأمر ينطبق على ما يتوفر من النسخ الخطية الأخرى من الكتاب ، ويُشار إلى النسخ المخطوطة في الحواشي عند وقوع سقط أو زيادة ، أو تحريف أو تصحيف أو اختلاف بالرموز ، وتُسمَّى مخطوطة الأحمدية بـ « النسخة : أ » ونسخة برلين بـ « النسخة : ب » ونسخة الظاهرية بـ « النسخة : ظ » والمطبوعة بـ « النسخة : ط » .

ثانياً : فيما يتصل بتحقيق نصوص الكتاب فإنه يجري على هذا الشكل :

١ ـ تفصيل النصوص ، وترقيمها ، وترتيبها ، واعتبار الفصول في الأجزاء (١ ـ ٦) و (١٧ ـ ١٨) والسنوات في الأجزاء (٨ ـ ١٦) فيما يتعلق بأوائل الصفحات ، وختم كل فصل ، وحوادث كل سنة بخمس نجوم (☆ ☆ ☆ ☆ ☆) في وسط الصفحة .

ويرجى ترقيم الآيات الواردة في الكتاب بذكر اسم السورة مع رقم الآية بين حاصرتين في متن الكتاب هكذا [ ] وحصر الآيات بقوسين مزهرين هكذا ﴿ ﴾ والأحاديث والآثار وأسماء الكتب بقوسين هكذا « » .

٢ ـ ضبط ألفاظ الآيات ، والأحاديث ، والآثار ، والأبيات الشعرية ، وأسماء الأعلام ، والبلدان والأماكن ، والألفاظ التي قد يُشكل فهمها على كثير من الناس .

٣ ـ ذكر مصادر الترجمة للمترجمين تراجم مفردة في الكتاب مرتبة ترتيباً زمنياً ، بحيث تذكر المصادر التي سبقت المؤلف وعاصرته .

٤ ـ تخريج الأحاديث النبوية الواردة في الكتاب من المصدر الذي نقل عنه المؤلف ، والإشارة إلى ورود الحديث في المصادر الأخرى التي سبقت المؤلف ، أو المصدر الذي نقل عنه ، لا من طريق غيره من الرواة ، وكذلك بالنسبة إلى الآثار الموقوفة على الصحابة ، والتي لم ترفع إلى رسول الله ﷺ ، ويرجى ترتيب المصادر حسب الترتيب الزمني أيضاً ، والتأكد من سلامة النقل في المصدر الذي نقل منه المؤلف ، وذلك لاستدراك ما قد يقع من السقط ، والإشارة إلى ما قد يكون من زيادة في نصِّه ، ويكون تخريج الحديث وفق ما يلي على سبيل المثال :

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير النَّاسِ قَرْني ، ثمَّ الذين يَلُونَهُمْ ، ثمَّ الذينَ يَلُونَهُمْ ، ثمَّ يجيءُ قومٌ تَسْبِقُ شهادةُ أحدِهم يمينَه ، ويمينُه شهادتَه » . رواه أحمد في « مسنده » (١/ ٤٤٢) والبخاري في « صحيحه » (٧/ ٦) في فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ومسلم في « صحيحه » رقم (٢٥٣٣) في فضائل أصحاب النبي ﷺ ، والترمذي في « جامعه » رقم (٣٨٥٨) في المناقب ، باب ما جاء في فضل من رأى النبي ﷺ وصحبه . كلُّهم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

٥ ـ التعريف بالبلدان المغمورة باختصار ، مع الإشارة إلى المصدر الذي نقلت عنه المعلومات ، وذكر الجزء والصفحة أو المادة من كتب اللغة .

٦ ـ الإشارة في الحواشي إلى أسماء المصادر التي نقل عنها المؤلف ، وذكر الجزء والصفحة ، ومقابلة النقل على المصدر الذي نقله منه ، للتأكد من سلامة النقل ، واستدراك ما قد يقع فيه من السقط ، وتصحيح ما فيه من الخطأ ، والإشارة إلى الخلاف ما بين النص المنقول من الكتاب أو النص الموجود في الأصل المنقول عنه .

٧ ـ ترقيم التراجم المفردة في الكتاب بأرقام متسلسلة ، وذلك لحصر العدد الكامل لها في آخر الكتاب ، والتعريف بالأعلام الذين ليس لهم ترجمة في الكتاب باختصار .

٨ ـ ذكر المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في كل جزء على حدة .

٩ ـ صنع فهرس للموضوعات في كل جزء على حدة ، والتراجم المفردة الواردة فيه .

١٠ ـ يقوم كل محقق بكتابة مقدمة موجزة للجزء الذي وكل إليه تحقيقه .

١١ ـ يتولَّى كلُّ محقِّق تصحيح تجارب الطبع في الجزء الذي وكل إليه تحقيقه . وبالنسبة للحواشي والتعليقات يقوم المحقق بكتابتها على أوراق مستقلة ، ويترك فراغاً بين التعليق والآخر مقدار ثلاثة أسطر تقريباً ، لكي يتسع لما قد يضيفه المراجع من التعليقات أثناء مراجعة الكتاب ، لا سيما فيما يتصل بتخريج الأحاديث النبوية ، للحكم عليها من جهة الصحة والضعف .

وفي الختام : نسأل الله تبارك وتعالى أن يعيننا جميعاً على إخراج هذا الكتاب العظيم على النحو الذي يُرضيه عنا جلَّ جلاله ، وأن ينال الكتاب تقدير المخلصين العاملين في خدمة تراث هذه الأمة العظيمة ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دمشق في ١ شعبان ١٤٠٥هـ ـ خادم السنة النبوية / عبد القادر الأرناؤوط .

● مدى الالتزام بهذه الخطة :

التزم المحققون جميعاً بهذه الخطة ، وأتقنوا تفاصيلها ، وبخاصة عندما تعدَّى التكليف بالتحقيق إلى أكثر من جزء أو جزأين .

☆ وبدأت تظهر بعض الأجزاء المتقدمة ، فتكون نموذجاً ونبراساً للأجزاء المتأخرة ، وكانت الجهود ظاهرة في خدمة النص ، وتقديمه كاملاً ومتطابقاً مع ما أراده المؤلف وهدف إليه أو قريباً منه ، مع تعليقات وإضاءات مدروسة تنير غوامض بعض الألفاظ ، وتشع الضوء في مرامي جمله وعباراته .

☆ وأسهم التنضيد الحديث بإشراف وتنفيذ الأستاذ محمد إبراهيم شونو ، في تقديم النص بصورة متقدمة ومشرقة ، وأُخذت الآيات القرآنية مشكولة من المصحف الشريف ، مع فواصلها وأرقامها ، وتمَّ إدخال اللون الأحمر ، ليبرز العناوين والأرقام والفوائد المهمة .

☆ وربما أعرض كثير من المحققين عن التقديم للأجزاء التي أنجزوها ، حرصاً على وحدة الكتاب ، واكتفاء منهم بالمقدمة الضافية التي سبقت الجزء الأول ، وكانت بمثابة مقدمة للأجزاء كلها ، واستقر الرأي على الاستغناء عن كثير من المقدمات الفردية .

☆ وامتاز الكتاب في هذه الطبعة المشرَّفة بالجمع بين البداية والنهاية ، والتاريخ من بدء الخليقة إلى النهاية في أحوال الآخرة ، وحقَّق هذا الجزء السابع عشر وراجعه فضيلة الشيخ المحدث عبد القادر الأرناؤوط ـ رحمه الله ـ وجزاه الله أعظم الأجر والثواب عن هذا العمل المبارك الموصول ، وإنه لفخر يستحق الذكر والشكر أن تصدر البداية والنهاية كاملة وافية .

☆ وخُتم الكتاب بأربعة أجزاء اشتملت على الفهارس العلمية الوافية ، ولا شكَّ أن الفهارس مفاتيح ، تُيسِّر للقارئ الاستفادة من الكتاب ، والتجوال ضمن موضوعاته وكنوزه ، وتضمَّنت :

ـ فهارس الآيات القرآنية ، والأحاديث القولية والفعلية والآثار ، صنعة الأستاذ محمود الأرناؤوط .

ـ وفهارس الأعلام المترجم لهم ، وغير المترجم لهم ، صنعة الأستاذ أكرم البوشي .

ـ وفهرس الموضوعات ، وفهرس الشمائل والتاريخ ، وفهرس مصادر ابن كثير والكتب المذكورة في الكتاب ، وفهرس مشايخ ابن كثير ، وفهرس الأقوال والخطب والرسائل والوصايا والتوقيعات ، وفهرس الأماكن والبلدان والمواضيع ، وفهرس الحيوان والنبات ، وفهرس الشروح اللغوية ، وشروح الغريبين ، وفهرس القوافي والأشعار ، وفهرس الأمثال والحكم العربية والإسلامية ، وفهرس الأساليب العربية ، وفهرس الفوائد ، وفهرس الفهارس ، صنعة الدكتور رياض مراد .

• **القراءات المتعددة للكتاب بكامله :**

١ ـ قراءة الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ـ رحمه الله ـ وهو المشرف العام على الكتاب ، ومراجعة وتخريج الأحاديث ، واستدراك أي خلل أو تقصير ، والحكم على أحاديث غير الصحيحين . وهذه القراءة الأولى لمسوَّدة كل جزء ، والتعليقات لا تزال جذاذات وقصاصات ، مفخرة للكتاب وللعاملين في تحقيقه ؛ لما يحمله الشيخ بين جوانحه من علم وتواضع وإخلاص ، وأنفاس طاهرة وأخلاق رضية ، واختصاص حديثي مشهود له ، ويظهر جلياً من خلال التعليقات القيمة المختومة بحرف « ع » ، رحم الله تعالى المحدث الجليل الشيخ عبد القادر ، وأسكنه الله تعالى فسيح جناته ، وجمعنا به تحت لواء سيدنا محمد ﷺ .

٢ ـ قراءة الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف حفظه الله تعالى ، وهو غني عن التعريف في اختصاصه وأستاذيته في مادة التاريخ الإسلامي والحديث النبوي الشريف ، وأعماله الكثيرة في مجال التحقيق وخدمة الكتب التراثية ، والنصوص التاريخية والحديثية . وتصحيحاته المثبتة على التجارب الأخيرة من تصحيح أجزاء « البداية والنهاية » في الأجزاء الست عشرة تشهد بخبرة عالم متضلع في فن التاريخ والتراجم والحديث ، ومستحضر لأخطاء وتصحيفات يقع بها الرواة والنُّسَّاخ . وتعليقاته المختومة باسمه « بشار » تؤكد الحظ الباسم والوافر لهذا الكتاب .

٣ ـ قراءة الدكتور محيي الدين ديب مستو للكتاب في آخر تصحيح ، ولصورة كاملة للأجزاء التي اعتمدت في الفهرسة ، وكان الغرض منها : التنسيق العام في كل الأجزاء ، وتوحيد علامات الترقيم ، وتصحيح بعض الأخطاء المطبعية ، ومقارنة النص كاملاً مع نسخة مقروءة ومصححة بقلم أستاذنا وشيخنا نايف العباس ـ رحمه الله تعالى ـ ، والتوقف عند تصحيحات الشيخ والاستفادة منها ، ومعروف في دمشق اهتمام الشيخ نايف بالتاريخ الإسلامي وتدريسه له في معهد العلوم الشرعية التابع للجمعية الغراء ، وقد قرأنا بين يديه السيرة النبوية لابن كثير بأجزائها الأربعة ، وكانت قراءته أو ضبطه لما نقرأ في البداية والنهاية ـ طبعة المعارف ـ بيروت ـ ١٩٦٦م ، وقد أحضرها لي كاملة ابنه عبد المؤمن العباس جزاه الله كل خير ، وجعله سلفاً صالحاً لوالده .

وقد أثمرت هذه القراءة فوائد عظيمة وفرائد جليلة ، فيها العبرة الصادقة والعظة المؤثرة ، أشرت إليها في دفتري ، وستُطبع في دار ابن كثير مستقبلاً تحت عنوان « فوائد وفرائد » من البداية والنهاية ، ولله الحمد والمنة .

٤ ـ قراءة الأستاذ أكرم البوشي للكتاب مرتين ، مرة أثناء الفهرسة ، ومرة أخيرة ؛ لتكون مسكَ الختام ، وقد أثبتَ تصحيحات مهمة بقلمه الأخضر ، فيها تقويم الشكل ، وتصحيح الخطأ ، وفيها استدراك بعض السقط ، جزاه الله كل خير ، ووفَّقَه لكل صواب .

وختاماً :

أسأل الله الجواد الكريم أن يجزل الأجر العظيم ، والخير العميم لدار ابن كثير ممثلة بصاحبها الأستاذ علي ديب مستو الذي ضحَّى بماله ووقته ، وصبر وصابر ، معرضاً عن جهل الجاهلين ، وهفوات المتعالين والمتعالمين . . كما أشكر باسمه كل من أسهم في إنجاز هذا العمل أو شارك فيه ولو بالقليل . . اللهم تقبل منا هذا الجهد ـ وهو جهد المقل ـ واكتبه في صحائفنا ، وصحائف والدينا ومشايخنا . . يوم نلقى الأحبة محمداً ﷺ وصحبه ، ونلقى الحافظ ابن كثير . . والحمد لله ربِّ العالمين .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

وكتب

الدكتور محيي الدين ديب مستو

أبو أديب

(٢)

دراسة شخصية المؤلف

الحافظ ابن كثير

أولًا : عصر المؤلف

ثانياً : اسمه ونسبه

ثالثاً : ولادته ونشأته

رابعاً : أسرته

خامساً : شيوخه وتلاميذه

سادساً : كتبه

سابعاً : مكانته العلمية والاجتماعية

ثامناً : وفاته

(٢)

دراسة شخصية المؤلف

الحافظ ابن كثير

أولًا : عصر المؤلف

تمهيد :

عاش الحافظ ابن كثير عمره البالغ (٧٤) عاماً ، في حكم دولة المماليك البحرية ، والممتد من عام ٦٤٨هـ إلى ٧٨٤هـ وقد انتزع هؤلاء السلطة والحكم من أسيادهم الأيوبيين ، وتسمَّوا بالسلاطين مع الاحتفاظ بكلمة مملوك ، وآثروا وجود الخلافة[1] العباسية شكلاً وصورة ، لتبرير حكمهم ، وإضافة شيء من الشرعية عليه ، وقد خلا لهم الجو بمصر ، وفرغت الساحة ، واستطاعوا بفروسيتهم أن يبنوا لهم مجداً جهادياً بهزيمة المغول في عين جالوت (٦٥٨هـ) والتتار في شقحب (٧٠٢هـ) ، وهزيمة لويس التاسع وأسره في دمياط (٦٤٨هـ) وفتح عكا (٦٩٠هـ) وتطهير جميع السواحل الشامية من الغزاة الصليبيين إلى الأبد .

واستمروا من عام (٧٠٣هـ) إلى (٧٨٤هـ) يخضعون البلاد والعباد بهاجس الخطر الصليبي ، الذي يغيب ويظهر ، بعد أن تجمعت فلوله في جزيرة قبرص .

وامتدت حدود الدولة المملوكية من اليمن جنوباً إلى حدود الدولة العثمانية شمالاً ، ومن الفرات شرقاً إلى برقة غرباً ، وظهرت قوتهم في توحيد الشام ومصر ، والتشرف بإخضاع الحجاز ؛ لخدمة الحرمين الشريفين . أما بقية الأقاليم فتخضع لعاصمة الحكم في القاهرة بدرجات متفاوتة .

وقد عاصر ابن كثير من ولادته إلى وفاته (٥) خمسة من الخلفاء العباسيين ، و (١٥) خمسة عشر سلطاناً ، و (٢٠) عشرين نائباً في دمشق ، وسنلقي الضوء على هذه الفترة الزمنية من خلال التعرف على الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والعلمية ، والفكرية .

---

(١) السلطان الظاهر بيبرس هو أول من عمل على إحياء الخلافة العباسية بمصر بدءاً من سنة ٦٥٩هـ .

١ ـ الحياة السياسية :

وقد بدأنا بها لأنها التي توجد الاستقرار والأمان ؛ لحياة اجتماعية فارهة ، وحياة علمية متوهجة ، وحياة فكرية متوقدة .

وهي التي إذا اضطربت وضعفت ، وانعدمت الشورى ، وافتقدت العدالة ، وخاب الرأي الحر الغيور عن الحكام ؛ انقلبت حياة الناس إلى ظلم وتعاسة ، وفقر بائس ، وركود علمي ، وجمود فكري .

ومن المؤسف حقاً أن المماليك البحرية بدأوا تفرُّدهم بالحكم بالخيانة والغدر والتآمر والقتل ، واستمر هذا حال الأمراء فيما بينهم ، لا يستثنى من ذلك سوى مدة حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعد عودته للمرة الثالثة (٧٠٩ ـ ٧٤١هـ) ، ومدة حكم النائب سيف الدين تنكز في دمشق (٧١٢ ـ ٧٤٠هـ) .

فالخليفة : رمز شكلي يبايع السلطان ، ويعيش في ظله ، ولا يملك من أمور الدولة الداخلية أو الخارجية شيئاً ، ويحمل لقباً فخماً ، كما حمل أجداده من بني العباس ؛ كالمستكفي بالله الأول (٧٠١ ـ ٧٣٦) والواثق بالله الأول (٧٣٦ ـ ٧٤٢) والحاكم بأمر الله الثاني (٧٤٢ ـ ٧٥٣) والمعتضد بالله الأول (٧٥٣ ـ ٧٦٣) والمتوكل على الله الأول (٧٦٣ ـ ٧٨٥) .

والسلطان : هو الحاكم الفعلي ، والذي يملك مقاليد الأمور السياسية الداخلية والخارجية ، وتجبى الأموال إلى قصره ، ولذلك يكون عرضة للقتل أو الخنق إذا كان ضعيفاً أو صغيراً ، أو لم يستطع أن يلبي متطلبات الأمراء من حوله وفوق رأسه ، أو كان فاسقاً أو فاجراً يعلن مبررات خلعه ، أو كان خائناً غادراً يعرض الأمة والبلاد للخطر الداهم ، فتسقط عند الناس هيبته ، ويطيح المتربصون برأسه . وإذا كان السلطان المنصور قد تمكن من تأسيس أسرة حاكمة ، واستمرت في السلطنة (١٠٥) سنوات ، فإن ابنه محمد هو الوحيد الذي حكم بقوة ومات على فراشه ، وإن ستة من أولاد الناصر وأحفاده كانوا ضعافاً فخلعوا ، وأربعة قتلوا ، واثنان فقط ماتوا ميتة طبيعية .

والنائب في دمشق[١] : هو المتنفذ طالما استقر به الحال ، وهدأت من حوله العواصف ، وجمع الثروات والعقارات ، ولكن المؤامرات والوشايات له بالمرصاد ، فيأمر السلطان بمسكه ومصادرته وقتله ، وقد استثني النائب تنكز ، فقد طالت مدته ، وظهر العدل والاطمئنان في نيابته ، وأصبح السلطان يخطب وده ، ويكاتبه بألقاب الفخامة وعلو الجناب[٢] ، ولكن قبض عليه حين

---

(١) أكثر من نصف النواب الذين حكموا دمشق ، وعاصرهم ابن كثير كانوا يحملون لقب « سيف الدين » .

(٢) كتب له مرة يقول : « أعز الله أنصار المقر الكريم العالي » بدائع الزهور (ص ١٤٦) .

تغير خاطر الناصر عليه في أواخر نيابته ، ودبَّت عقارب الفتن بينهما ، فصودر وسُجن بالإسكندرية ، حيث مات ، قيل مخنوقاً ، وقيل : مسموماً ، وقيل : غير ذلك ، في المحرم سنة ٧٤١ هـ ، وتأسف الناس عليه كثيراً وطال حزنهم عليه[١] .

٢ ـ الحياة الاجتماعية :

ارتاح الناس من الخطر القادم من الشرق أو الشمال بعد الانتصار على التتار في مرج الصفر جنوب دمشق سنة (٧٠٢هـ) ، وبقيت عيونهم مسَمَّرة على الساحل الغربي حيث طيف الخطر الصليبي . وآثار التدمير المغولي والتخريب الصليبي ماثل للعيان ، وأوصال الأمة متقطعة ، والأخبار منقطعة ، وبخاصة في هذا القرن الثامن ، فالقارئ لتاريخ ابن كثير لا يجد أي أخبار عن بغداد أو عن بلاد المغرب ، وكأن العالم اختصر في دمشق والقاهرة .

والبعد الزمني عن الهجرة النبوية والقرون الخيِّرة الأولى ، أدى إلى اختلاف وانقسام ، وضعف في التطبيق العملي لمبادئ الإسلام .

فالحاكم السلطان ونوابه يتفننون في فرض الضرائب ، ويتوسعون في منح الإقطاعات ، لضمان جمع أكبر قدر من الأموال ، مما يزيد في تراجع الزراعة ، وتخلف الصناعة ، وإفلاس التجارة ، وتفشي البطالة ، وغلاء الأسعار .

والمرأة يرتكس دورها في بناء الأسرة وصلاح المجتمع ، فتتطلع إلى حبس زوجها إذا عجز عن النفقة ، أو تأخر عن طلبها مؤخر صداقها ، وتلبس الثياب ذات الأكمام العريضة والأزرار الحريرية ، والأحذية المزركشة ، التي تثير الغرائز أو تكشف عن المفاتن ، مما يستدعي تدخل السلطان[٢] ومنعها . وربما يسهم الفقر في انتشار البغاء ، وظهور نساء متنفذات يضمنَّ عمل البغايا ، ثم يُبطل السلطان ذلك ، وتنتشر الأغاني الخليعة وما يصاحبها من فسق وخمر ، رغم فتاوى العلماء بتحريم ذلك ، وكتابتهم أن هؤلاء المغنين هم « نوَّاحو جهنم » وأن السامعين لهم يُعذَّبون في قبورهم ، ويُحاسبون يوم حشرهم .

وتزداد الحياة الاجتماعية سوءاً بتعرُّض البلاد لكثير من الجوائح والكوارث الطبيعية ، كالفيضانات والزلازل والجراد ، وإصابتها بالمجاعات والأوبئة ؛ كالطاعون الذي يحصد الناس حصداً ، ويذهب منهم في اليوم الواحد بالمئات والألوف .

والناس الفقراء والمتبطلون يتبلَّد حسُّهم الجماعي ، ويرضون بالواقع المر والظلم الغاشم ،

---

(١) انظر البداية والنهاية (١٦/ ٢٩٢) .
(٢) المصدر السابق (١٦/ ٣٥٢) .

ويغيبون عن المطالبة بأي تغيير ، أو إحداث أي تأثير ، مع أنهم في بعض الاستقبالات أو المآتم يحضرون ويتحركون .

٣ ـ الحياة العلمية :

وفي هذا الجو المظلم المكفهر كانت الحياة العلمية مزدهرة تعطي أطايب الثمار وأفضل النتائج ، والعلماء يتمتعون بتكريم الحكام ، واحترام الرعية ، والمدارس الكثيرة تُبنى وتوقف لها الأوقاف ، وتُرصد لها الأموال ، ذلك أن المماليك كانوا يتقرَّبون إلى الناس برفع منزلة العلماء وتقديم الجوائز والوظائف الدينية للمتفوقين وذوي السمعة الطيبة منهم ، وبخاصة في أوقات الشدة ، وعندما يحتاجون إلى تأثير العلماء ونفوذهم القوي على عامة المسلمين .

وتتجلى للمتأمل في الحياة العلمية خلال القرن الثامن الظواهر التالية :

الأولى : عظمة هذا الدين الإسلامي وخلوده ، وأنه صخرة منيعة ، تتحطم عليها مطامع الغزاة ومعاول الهدَّامين والمخربين ، لقد امتحن الإسلام في هذا العصر ، وخرج من أقسى المحن وأشد الخطوب سالماً منتصراً، وأثَّر حتى في أعدائه القساة الحاقدين عليه، فاعتنقوه وانضووا تحت لوائه.

الثانية : نشاط العلماء في هذا العصر ، وكثرتهم وكثرة تآليفهم ، وقد وصلوا بكتبهم بين ماضي الأمة وحاضرها ومستقبلها ، وأثبتوا صلابة مواقفهم وأنهم لم تقهرهم روح اليأس مما يُحيط بهم من ظلمات وأحوال .

الثالثة : الخلافات الاعتقادية لا سيما بين السنة والشيعة ، وبين المذاهب الفقهية ، كل ذلك أضعف الحياة العلمية ، واستنفد أوقاتاً وجهوداً عظيمة ، جعلت الماضي عبئاً على الحاضر ، ولم يُفد واقع الأمة ولا مستقبلها شيئاً مذكوراً .

الرابعة : بعض الفرق الصوفية التي لا تلتزم الكتاب والسنة ، حجرت على عقول الناس وأفكارهم ، ومنعت كل تطور وإصلاح ، واستهلكت أوقات العلماء وأعمارهم في تآليف وردود ؛ لكشف البدع ، وبيان زيف الخرافات ، وتجاوز المظاهر والقشور .

الخامسة : الاقتصار على العلوم الشرعية ، وعدم الاهتمام بالعلوم الكونية ، وغياب شمس الحضارة التي سبق وسطعت في بغداد ، وملأت الآفاق بنورها الشامل الوهَّاج .

علماً بأن تحصيل العلوم الدنيوية ، والنهوض بالصناعة وحيازة أسباب القوة مطلب شرعي ، إذ هي فروض الكفاية المضيعة ، والتي تزيد المسلمين ضعفاً وتخلُّفاً .

٤ ـ الحياة الفكرية :

لم تثمر الحياة العلمية في القرن الثامن الهجري حياة فكرية متوثبة أو متوقدة ، بل بقيت مظاهر

الجمود والتخلف الفكري واضحة وراسخة ؛ فالتعليم يقوم على حفظ المتون ، والتآليف قاصرة على الشرح أو الاختصار ، أو صنع الحواشي والهوامش ، والطلاب الجدد لا يعرفون أي تجديد وابتكار ، وهذا ما لاحظه الشيخ محمد أبو زهرة على الحياة العلمية وآثارها الفكرية ؛ فقال :

« وإذا كانت القرون الثلاثة ـ ٦ و ٧ و ٨ ـ قد امتازت بشيء ، فقد امتازت بكثرة العلم ، لا بعمق الفكر ، فقد كانت المعلومات كثيرة ، وتحصيلها كان بقدر عظيم ، وعكوف الناس عليها كان كبيراً . ولكن التفكير المطلق في مصادرها ومواردها ، والمقايسة بين صحيح الآراء وسقيمها مقايسة حرة نزيهة من التعصب الفكري ، والتحيز المذهبي ، بالنظر الفاحص المجرد ، أو النظر الذي يعم كلَّ الجوانب ، لم تكن بقدر يتناسب مع تلك الثروة المثرية التي توارثتها الأجيال »[1] .

ولا بد هنا ونحن نتصور الحياة الفكرية من تسجيل الملاحظات التالية :

الأولى : وجود التعصب المذهبي بين المذاهب الأربعة ، وبين أهل المذهب الواحد أحياناً .

الثانية : الخلاف بين الشيخ ابن تيمية وتلاميذه وبين المتصوفة وبعض الفقهاء ، مما أدى إلى سجن ابن تيمية ثلاث مرات ، إحداهن بمصر ، وسجن الحافظ المزي ، وابن القيم في دمشق ، بسبب اجتهادات فرعية فقهية ، تدل على تحجر وضيق أفق .

الثالثة : الاهتمام بعلم التاريخ ، ولكن من غير تجديد ولا نقد ـ باستثناء ابن خلدون والمقريزي ـ والاقتصار على التذييل والاختصار ، مما عطَّل هذا العلم العظيم عن تحريك بناء الأمة ، وتوحيدها ، ودفعها إلى بناء الحضارة وتوحيد الشمل من جديد .

الرابعة : التأثر بعقائد الأمم والأجناس المختلفة ، والخوض في علم الكلام ، والتأثر بالمنطق الصوري ، والانزلاق إلى متاهات الجبر والاختيار ، والتأويل والتفويض ، والتجسيم والتعطيل . . والإبقاء على الآراء المختلفة معلَّقة ، تقسم الصف ، وتهدد المستقبل ، وتنذر بالفناء .



---

(١) ابن تيمية ، للدكتور محمد أبو زهرة (ص ١٥٤) .

ثانياً : اسمه ونسبه

هو الحافظ الحجَّة ، والمُفسِّر العمدة ، والمحدِّث الثقة ، والمؤرِّخ الموضوعيّ ، والفقيه المستحضر ، عماد الدين ، أبو الفداء ، إسماعيل بن عمر بن كثير ، بن ضَوْ بن درع[1] القرشي ، الحَصْلي ، البُصروي ، الدِّمشقي ، الشافعي ، المعروف بابن كثير .

فهو عربي « قرشي » لأن بني حَصْلة ينتسبون إلى الشرف ، وبأيديهم نسب ، وقد وقف على بعضها الشيخ أبو الحجاج جمال الدين المِزِّي ، فأعجبه ذلك وابتهج به ، فصار يكتب في نسب ابن كثير « القرشي »[2] .

وهو « بُصروي » : لأن أباه من « بصرى » وهي بلدة قديمة بالشام من أعمال دمشق ، وتقع في الجنوب الشرقي من سورية ، وثاني مدينة بعد « درعا » في منطقة حوران ، وتبعد عن دمشق حوالي (١٣٧) كم .

وهو بعد ذلك « دمشقي » : لأنه سكن دمشق ، ونشأ فيها ، ثم توفي ودُفن فيها .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

---

(١) كذا في طبقات المفسرين ؛ للداودي (١/ ١١) وإنباء الغمر بأبناء العمر ، لابن حجر (١/ ٤٥) وفي شذرات الذهب ، لابن العماد (٨/ ١٩٧) وذيل تذكرة الحفاظ ؛ للحسيني (ص ٥٧) ابن ذُرَع . وفي الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ؛ لابن حجر (١/ ٣٩٩) « القيسي » وفي نسخة « العبسي » .

(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٣٥) .

ثالثاً : ولادته ونشأته

• **ولادته :**

ولد ابن كثير بقرية « مَجْدَلْ »[1] وهي قرية شرقي مدينة « بصرى » سنة ٧٠١هـ ، ولم يُنقل لنا شيء عن تحديد اليوم أو الشهر الذي وُلد فيه ، بل إن بعض من ترجم له لم يجزم في تحديد سنة ولادته ، فالإمام الذهبي يقول في « طبقات الحفاظ » : ولد بعد السبعمئة أو فيها[2] . والحافظ ابن حجر يقول في « الدرر الكامنة » : ولد سنة سبعمئة أو بعدها بقليل[3] .

وهذا التاريخ لولادة ابن كثير مستنبط من كلامه هو ، حيث يقول في ترجمة أبيه المتوفىٰ سنة ٧٠٣ هـ : « وكنتُ إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها ، لا أدركه إلا كالحلم »[4] والذي يدقق النظر في كلامه : « ابن ثلاث سنين أو نحوها » يترجح لديه أن تكون ولادته في سنة ٧٠١هـ لا في سنة ٧٠٠هـ ، إلا أن يكون قد وُلد في أواخر السبعمئة ، وتوفي أبوه في أوائل سنة ٧٠٣هـ . ويرى أحمد محمد شاكر في « عمدة التفسير » : أن ولادة ابن كثير كانت سنة ٧٠٠هـ أو قبلها بقليل ، ورجَّح ذلك من عبارة ابن كثير نفسها : « لا أدركه إلا كالحلم » فقال : الذي هو في سن أقل من الثلاث ، ما أظنه يذكر شيئاً كالحلم ولا أبعد من الحلم ولا أقرب ، فهو حين موت أبيه قد جاوز الثالثة في أكبر ظني[5] . وقال : وابن ثلاث سنين لا يعرف تواريخ السنين على اليقين في تلك السن ، فقد سمع إذن تحديد السنة التي مات فيها أبوه ممن حوله من إخوة وأهل وجيران[6] .

ولكننا نعود فنؤكد سنة ٧٠١هـ ، لأنها من تحديد المؤلف ابن كثير ، حيث نجده يقطع الشك باليقين ، ويقول في أواخر سنة (إحدى وسبعمئة) : وفيها وُلد كاتبه إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي[7] .

---

(١) وتعرف الآن باسم (الجدل) وهي بجوار بلدة (القُرَيَّة) وكلتاهما تقعان في السفح الجنوبي الغربي لجبل العرب . وهما تابعتان إدارياً لمحافظة السويداء .
(٢) تذكرة الحفاظ ؛ للذهبي (٤/ ١٥٠٨) .
(٣) الدرر الكامنة (١/ ٣٩٩) .
(٤) البداية والنهاية (١٦/ ٣٥٠) .
(٥) عمدة التفسير (١/ ٢٣) .
(٦) عمدة التفسير (١/ ٢٣) .
(٧) البداية والنهاية (١٦/ ١٩) .

• **نشأته :**

أما نشأته الأولى فكانت في قرية « مَجْدل » أو « مِجْدل » أو « مجيدل القُرَيَّة »[1] وتقع شرقي مدينة بصرى ، وهي موطن أمه ، انتقل إليها والد ابن كثير في أواخر حياته ، وعمل بها إماماً للصلوات وخطيباً للجمع والأعياد ، وبقيت الأسرة بعد وفاته مقيمة بها حوالي أربع سنين ، ثم تحوَّلت إلى دمشق سنة ٧٠٧هـ ، وغادر ابن كثير هذه القرية بعد أن ملأ قلبه وفكره من ذكريات الطفولة فيها ، وحفظ ما يتحدَّث الناس به عن خطب والده المؤثرة ، وسمع ما يحفظونه من أقواله وشعره ، وقصَّ عليه إخوته أن أباه سمَّاه إسماعيل تيمناً بأن يكون كأخيه الكبير طالب علم ، الذي اختطفته يد المنون بعد أن قطع في طريق طلب العلم شوطاً بعيداً ، فتطلَّعت نفسه منذ ذلك السن المبكر إلى السير في هذا الطريق ، والارتواء من منهله العذب ، فيقر بذلك عينَ والده في قبره ، ومن ثَمَّ يصبح بين الناس كأبيه شيئاً مذكوراً .

وأما نشأته الثانية والمؤثِّرة ، فكانت في دمشق الشام ، فارتحل إليها مع أخيه الشقيق عبد الوهاب المحب الشفوق ، الذي كان بمثابة الأب والمعلم الأول له ، واستمر في ملازمته والاستفادة منه مدة طويلة ، ولنسمع المؤرخ ابن كثير يحدثنا عن ذلك فيقول : « ثم تحوَّلنا من بعدُ ـ أي من بعد وفاة الوالد ـ في سنة ٧٠٧هـ إلى دمشق صحبة كمال الدين عبد الوهاب ، وكان لنا شقيقاً ، وبنا رفيقاً شفوقاً ، وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين وسبعمئة ، فاشتغلت على يديه في العلم ، فيسَّر الله تعالى على يديه ما تيسَّر ، وسهَّل منه ما تعسَّر »[2] .

ويُحدِّد ابن كثير مكان سكناهم في دمشق ، ولكن بأسماء قد تبدلت وعفَّى عليها الزمن فيقول :

« في هذه السنة ٧٠٧هـ كان قدومنا من بُصرى إلى دمشق بعد وفاة الوالد ، وكان أول ما سكنا بدرب سقُّون الذي يُقال له درب ابن أبي الهيجاء بالصاغة العتيقة عند الطيوريين »[3] .

ويقول في ترجمة الشيخ محيي الدين بن عبد الله بن صفي الدين إبراهيم بن مرزوق المتوفى سنة ٦٦٢هـ :

« داره التي جعلت مدرسة للشافعية ، وقفها الأمير جمال الدين آقوش النَّجِيبي التي يقال لها « النجيبية » ـ تقبَّل الله منه ـ وبها كانت إقامتنا ، جعلها الله داراً تعقبها دار القرار في الفوز العظيم »[4] .

---

(١) المصدر السابق (١٦/ ٣٦) .
(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٣٧) .
(٣) المصدر السابق (١٦/ ٦٤) .
(٤) المصدر السابق (١٥/ ٤٠١) .

ولم ينشأ أبو الفداء في دمشق غريباً ، ثم يرحل عنها غريباً ، بل قضى عمره في ربوع دمشق يكتب تاريخها ، فيُغني بكلماته أفراحها وانتصاراتها ، ويبكي أحزانها وأتراحها . ويصف لنا من خلال الصراع على الحكم قلعتها وأبوابها ، وطرقها وساحاتها ، ويترجم ما يراه في عيون سكانها وهم يودِّعون والياً مخلوعاً ، أو يستقبلون حاكماً جديداً ، أو يشهدون نائباً متمرِّداً أو آخر غادراً .

ويُدعى ابن كثير بعد أن تخرج من محراب العلم إلى مجالس العلم والتحكيم ، وهي تقام في بساتين دمشق الساحرة ، أو في قاعات قصورها الشامية الفسيحة .

ويتطلع أهل دمشق إلى الاستفادة من حفظ ابن كثير واستحضاره، فيعتلي منابر المساجد خطيباً، ويدخل المدارس المتخصصة مدرساً ورئيساً ، ويجلس في مسجد بني أمية تحت قبة النسر مفسِّراً ومحدِّثاً . فأيُّ مغاني خير وبركة كانت تنتظره في دمشق ، فتفتح نفسه على العلم بنهم زائد، وتمنحه قلم الفقيه الورع والمؤرخ المسؤول ، فيعيش للفيحاء أكثر مما يعيش فيها . ودمشق حين سكنها ابن كثير ونشأ فيها معدن العلم وموئل العلماء ، فتحت صدرها للأساتذة الكبار العائذين بها من وجه الفرنجة والتتار ، فأصبحت عشاً ومأمناً لهم ، وتلقتهم مدارسها بالترحاب ، فملؤوها علماً وكتباً ، وكان من علمائها الكبار المحدِّث الثقة أبو الحجاج المزي ، والفقيه الشافعي الحجة تاج الدين الفزاري ، والعالم المجدد ابن تيمية ومن جاء بعده من تلاميذه المشهورين كابن القيم وابن كثير .

ويهمنا أن نثبت هنا البدايات في تحصيله العلمي إبان نشأته :

ـ ختم القرآن الكريم حفظاً سنة ٧١١هـ على الشيخ محمد بن أبي الحسن البعلبكي[(١)] الحنبلي المتوفى سنة ٧٣٠هـ .

ـ وتعلَّم القراءات على الشيخ محمد بن جعفر[(١)] اللَّبَّاد المتوفى سنة ٧٢٤هـ .

ـ وتعلَّم الكتابة على الشيخ نجم الدين موسى بن علي[(١)] المتوفى سنة ٧٢٣هـ .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

---

(١) انظر ترجمة وافية لكل من هؤلاء الشيوخ في فقرة خامساً « شيوخه » الآتية (ص 23) .

رابعاً : أسرته

• ونبدأ بالتعرُّف على أفراد أسرته التي تحدَّر منها ، وهم :

أبـــوه :

قال ابنه : « الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير ، ولد في حدود سنة ٦٤٠هـ ، واشتغل بالعلم عند أخواله بني عقبة ببصرى ، فقرأ « البداية » في مذهب أبي حنيفة ، وحفظ « جمل الزجَّاجي » وعُني بالنحو والعربية واللغة ، وحفظ أشعار العرب ، حتى كان يقول الشعر الجيد الفائق الرائق في المدح والمراثي ، وقليل من الهجاء ، وقرَّر بمدارس بصرى بمَبْرك الناقة[1] شمالي البلدة ، حيث يُزار ، وهو المَبْرك المشهور عند الناس ، والله أعلم بصحة ذلك . ثم انتقل إلى خطابة القُرَيَّة شرقي بصرى ، وتمذهب للشافعي ، وأخذ عن النواوي ، والشيخ تقي الدين الفزاري ـ وكان يكرمه ويحترمه فيما أخبرني شيخنا العلاَّمة ابن الزملكاني ـ فأقام بها نحواً من ١٢ سنة ، ثم تحوَّل إلى خطابة « مجدل » القرية التي منها الوالدة ، فأقام بها مدة طويلة في خير وكفاية وتلاوة كثيرة ، وكان يخطب جيداً وله مقول عند الناس ، ولكلامه وقع ؛ لديانته ، وفصاحته ، وحلاوته . وكان يُؤثر الإقامة في البلاد ؛ لما يرى فيها من الرفق ووجود الحلال له ولعياله . توفي والدي في شهر جمادى الأولى سنة ٧٠٣هـ في قرية مجدل ، ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتونة »[2] .

إخوته وأخواته :

ونستمر بالإصغاء إلى الحافظ ابن كثير وهو يُحدثنا عن إخوته وأخواته فيقول :

« وقد وُلد له عدة أولاد من الوالدة ومن أخرى قبلها . أكبرهم إسماعيل ، ثم يونس ، ثم إدريس . ثم من الوالدة : عبد الوهاب ، وعبد العزيز ، وأخوات عِدَّة . ثم أنا أصغرهم ، وسُمِّيتُ باسم الأخ « إسماعيل » لأنه كان قدم دمشق ، فاشتغل بها بعد أن حفظ القرآن على والده ، وقرأ مقدمة في النحو ، وحفظ « التنبيه » وشرْحَه على العلامة تاج الدين الفزاري، وحصَّل «المنتخب» في أصول الفقه ، قاله لي شيخنا ابن الزملكاني . ثم إنه سقط من سطح الشَّامية البرانية ، فمكث أياماً ومات ، فوجد الوالد عليه وجداً كثيراً ، ورثاه بأبيات كثيرة ، فلما وُلدت أنا له بعد ذلك سمَّاني

---

(١) أي : ناقة النبي ﷺ .

(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٣٧) .

باسمه ، فأكبر أولاده إسماعيل ، وأصغرهم وآخرهم إسماعيل ، فرحم الله من سلف ، وختم بخير لمن بقي »[1] .

ولم يعرف من أحوال أفراد هذه الأسرة إلَّا ثلاثة : الأخ الأكبر إسماعيل من الزوجة الأولى ، والأخ الأصغر إسماعيل المؤلف والمؤرخ المشهور ، والأخ الثالث عبد الوهاب ، وهو الأخ الشقيق والأكبر من الزوجة الثانية ، الذي تحمَّل مسؤولية الأسرة ، وارتحل بهم إلى دمشق طلباً للرزق واستكمالاً للعلم ، ووصفه ابن كثير بالرفق والشفقة ، وقد اشتهرت من أولاد عبد الوهاب هذا بنت هي ست القضاة أم عيسى (٧٣٠ ـ ٨٠١هـ) التي تميزت بالعلم والمعرفة والثقافة الدينية ، فقد حدَّثت بالإجازة عن القاسم بن عساكر ، والحجَّار ، وعلي الواني ، والمِزّي ، والشرف ابن حافظ ، وغيرهم . وقد سمع منها الفضلاء ، وأجازت لابن حجر فيمن أجازت[2] .

● وأما أسرته التي أسسها في دمشق ، فاختار لها الزوجة الصالحة ، وأنجب الأولاد البررة ، وأفرادها هم :

زوجه :

أمة الرحيم زينب ، بنت الشيخ جمال الدين المِزِّي المتوفى سنة ٧٤٢هـ ، وهو شيخه في علم الحديث ، ولم يسجل ابن كثير في « البداية والنهاية » تاريخ زواجه ؛ وإنما ذكر اسمها ، وأنها حفظت القرآن مع أمها أم فاطمة عائشة بنت إبراهيم بن صديق ، على الشيخة الصالحة العابدة أم زينب فاطمة بنت عباس التي ختَّمت القرآن لنساء كثيرات[3] ، والمتوفاة سنة ٧١٤هـ ، وسمعتْ من والدها الكثير من الأجزاء والكتب الكبار ، منها « تهذيب الكمال في أسماء الرجال » حيث نجد اسمها ضمن من سمعوا هذا الكتاب على المؤلف[4] . وقد أرَّخ ابن كثير لوفاة حماته سنة ٧٤١هـ . كما نقل عن زوجه زينب حادثة وفاة أبيها الشيخ أبي الحجاج[5] المزي ، يرحمه الله تعالى .

أولاده :

الأول : عمر ، وهو أكبر أولاده . قال ابن حجر في ترجمته : « عُني بالفقه ، وكتب تصانيف أبيه ، وولي الحِسْبة مراراً ، ونظرَ الأوقاف ، ودرَّسَ بعدة أماكن ، وعاش خمساً وأربعين سنة ، مات في رجب سنة ٧٨٣هـ »[6] .

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٣٦) .

(٢) الضوء اللامع ، للسخاوي (١٢/ ٥٧) وشذرات الذهب (٩/ ١٨) .

(٣) البداية والنهاية (١٦/ ٢٩٧) .

(٤) تنظر مقدمة الدكتور بشار لكتاب تهذيب الكمال .

(٥) البداية والنهاية (١٦/ ٢٩٧) .

(٦) إنباء الغمر بأبناء العمر ؛ لابن حجر (٣/ ٧٥) .

وذكر ابن حجر في ترجمة ابن كثير[١] : أن ابنه عمر نسخ له مسند الإمام أحمد الذي رتبه ابن المحب الصامت المتوفى سنة ٧٨٩هـ على ترتيب حروف المعجم ، وكانت هذه النسخة أصلاً لأبيه في تأليف كتابه الكبير « جامع المسانيد والسنن » ثم بيَّض عمر هذا الكتاب الجامع ، ورأى ابن حجر النسختين بخط عمر .

الثاني : زين الدين عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٩٢ هـ ، أشار إليه ابن فهد في كتابه « لحظ الألحاظ »[٢] واكتفى بالتصريح بأنه مات ودفن في دمشق .

الثالث : بدر الدين أبو البقاء محمد بن الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير ، ولادته بدمشق سنة ٧٥٩هـ ووفاته بها سنة ٨٠٣هـ . ذكر السخاوي في « الضوء اللامع » وابن العماد في « شذرات الذهب »[٣] أنه وُلد بدمشق ، ونشأ بها ، واشتغل وطلب ، وتخرَّج بابن المحبّ ، وسمع الكثير من ابن أميلة ، والصلاح بن أبي عمر ، وغيرهما من أصحاب الفخر ، ورحل إلى القاهرة ، فسمع من بعض شيوخها ، وتميَّز في هذا الشأن قليلاً ، وشارك في الفضائل ، مع خط حسن معروف جيد الضبط[٢] . إلا أنَّ ابن حجي قال : لم يكن محمود السيرة ، ودرَّس بعد أبيه في تربة أم صالح ، وعلَّق تاريخاً للحوادث التي في زمنه ، ذكر فيه أشياء غريبة . وقال الحافظ ابن حجر : سمعت من فوائده ، وسمع بقراءتي في دمشق ، ومات في سن الكهولة عن أربع وأربعين سنة بالرملة فارًّا من دمشق »[٢] . ولعله فرَّ من دمشق في الفتنة التيمورية ، حيث دخل تيمورلنك دمشق في ربيع الثاني من عام ٨٠٣ هـ ، ورحل عنها في شعبان من نفس السنة .

الرابع : تاج الدين عبد الوهاب ، وُلد سنة ٧٦٧هـ ، وتوفي سنة ٨٤٠هـ ، وقال السخاوي في ترجمته : « سمع من أبيه ، والمحب الصامت ، وأحمد بن عبد الغالب الماكسيني ، وابن أميلة ، وحدَّث فسمع منه الفضلاء »[٤] .

الخامس : شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن عمر بن كثير ، ذكره السخاوي[٥] في ترجمة ابنته المحدثة أسماء التي كانت سبباً في ذكر اسم أبيها وعدم نسيانه للأجيال المتأخرة ، وهي التي تولَّت تربيتها وتعليمها ستُّ القضاة أم عيسى بنت عبد الوهاب ، والتي تقدم ذكرها قريبا[٦] .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

---

(١) المصدر السابق (١/ ٤٧) .

(٢) لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفَّاظ ؛ لابن فهد (ص ١٧٨) .

(٣) الضوء اللامع ؛ للسخاوي (٧/ ١٣٨) ، وشذرات الذهب ، لابن العماد (٩/ ٥٧) .

(٤) الضوء اللامع ؛ للسخاوي (٥/ ٩٨) .

(٥) المصدر السابق (٥/ ٩٨) .

(٦) انظر المقدمات (ص 23) .

خامساً : شيوخه وتلاميذه

أ ـ شيوخه :

تمهيد : اتجه ابن كثير في دراسته إلى العلوم الشرعية ، وبخاصة الفقه والحديث ، وما يتصل بهما من علوم القرآن والسنة واللغة العربية ، وهو الاتجاه السائد في عصره ، يدفعه إلى ذلك نشأته الأولى في أسرته ، وبخاصة أخوه وشيخه الأول عبد الوهاب ، يضاف إلى ذلك أنه طالب علم نبيه ومتفوِّق ، فهو كثير الحفظ ، قليل النسيان ، صحيح الذهن ، مما يفسر العلاقة الحميمة بينه وبين شيوخه ، الذين أحبُّوه وشجَّعُوه على الصبر والمثابرة ، وكان لهم أثر كبير في تكوين شخصيته العلمية ؛ كالمؤرخ الذهبي ، والمحدِّث المزي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وسنذكر فيما يلي تعريفاً مختصراً بمشايخه ، وهم صفوة العلماء في عصره ، مرتبة أسماؤهم حسب سني وفاتهم ، فنبدأ بالأقدم وفاة ، حريصين كل الحرص على أن يكون التعريف بقلم ابن كثير ومن خلال تأريخه العظيم « البداية والنهاية » :

١ ـ موسى بن علي بن محمد الحَلَبي ، نجم الدين ، الدمشقي المتوفى سنة ٧١٦هـ :

قال ابن كثير : « الكاتب الفاضل المعروف بالبُصْبُص ، شيخ صناعة الكتابة في زمانه ، لا سيما في المزوج والمثلث ، وقد أقام يُكتِّبُ الناسَ خمسين سنة ، وأنا ممن كتب على يديه أثابه الله ، وكان شيخاً حسناً ، بهيَّ المنظر .. توفي يوم الثلاثاء عاشر ذي القعدة ، ودفن بمقابر الباب الصغير ، وله خمس وستون سنة »[١] .

٢ ـ زكريا بن يوسف بن سليمان بن حمَّاد ، ركن الدين البجلي الشافعي ، المتوفى سنة ٧٢٢هـ :

لم يذكر ابن كثير العلم الذي أخذه عنه ، وإنما قال : « شيخنا العلامة الزاهد ركن الدين ، بقية السلف ، نائب الخطابة ، ومدرس الطيبية والأسدية ، وله حلقة للإشغال[٢] بالجامع ، يحضر بها عنده الطلبة ، كان يشغل بالفرائض وغيرها ، مواظباً على ذلك ، توفي يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى عن سبعين سنة ، ودفن قريباً من شيخه تاج الدين الفزاري ـ رحمهما الله ـ »[٣] .

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ١٢١) .

(٢) الإشغال هو التعليم ، والاشتغال : طلب العلم .

(٣) البداية والنهاية (١٦/ ١٥٩) .

٣ ـ عبد الله ، ضياء الدين ، الدَّرْبَنْدِي النحوي ، المتوفى سنة ٧٢٣هـ :

أخذ عنه علم النحو ، وقال : « كان قد اضطرب عقله فسافر من دمشق إلى القاهرة ، فأشار شيخ الشيوخ القونوي فأُودع بالمارستان ، فلم يُوافق ، ثم دخل إلى القلعة وبيده سيف مسلول فقتلَ نصرانياً ، فحُمل إلى السلطان وظنوه جاسوساً ، فأمر بشنقه فشُنق ، وكنتُ ممن اشتغل عليه في النحو »[١] .

٤ ـ محمد بن محمد بن محمد ، شمس الدين ، أبو نصر الشيرازي ، المتوفى سنة ٧٢٣هـ :

أخذ عنه الحديث ، وقال : « شيخنا الأصيل شمس الدين ، أبـو نصر محمد بن عمـاد الدين أبي الفضل محمد بن شمس الدين أبي نصر محمد بن هبة الله محمد بن يحيى بن بندار بن مميل الشيرازي ، مولده في شوال سنة تسع وعشرين وستمئة ، وسمع الكثير وأسمع ، وأفاد في عليّة شيخنا المِزي تغمده الله برحمته ، قرأ عليه عدة أجزاء بنفسه ، وكان شيخاً حسناً خيِّراً ، متواضعاً ، مباركاً ، يُذَهِّبُ الربعات والمصاحف ، له في ذلك يد طولى ، ولم يتدنَّس بشيء من الولايات ، ولا تدنِّس بشيء من وظائف المدارس ولا الشهادات إلى أن توفي يوم عرفة ببستانه من المزة ، وصلِّي عليه بجامعها ، ودُفن بتربتها ـ رحمه الله ـ »[٢] .

٥ ـ عبد الوهاب بن ذؤيب الأسدي ، المعروف بابن قاضي شهبة ، المتوفى سنة ٧٢٦هـ :

تفقَّه عليه ابن كثير ، لأنه كان ينوب عن الشيخ تاج الدين الفزاري في حلقته ، وله حلقة خاصة ، قال عنه : « وُلد بحوران في سنة ثلاث وخمسين وستمئة ، وقدم دمشق ، واشتغل على الشيخ تاج الدين الفزاري ولازمه ، وانتفع به ، وأعاد بحلقته ، وتخرَّج به ، وكذلك لازم أخاه الشيخ شرف الدين ، وأخذ عنه النحو واللغة ، وكان بارعاً في الفقه والنحو . . توفي بالمدرسة المجاهدية ، وبها كانت إقامته ، ليلة الثلاثاء حادي عشر ذي الحجة ، وصُلِّي عليه بعد صلاة الظهر ، ودُفن بمقابر باب الصغير »[٣] .

٦ ـ محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم ، كمال الدين ، أبو المعالي المعروف بابن الزملكاني ، المتوفى سنة ٧٢٧هـ :

أخذ ابن كثير عنه الفقه وحضر دروسه ، وقال عنه : « انتهت إليه رئاسة المذهب تدريساً وإفتاءً ومناظرة ، برع وساد أقرانه ، وحاز قصب السبق عليه بذهنه الوقَّاد ، وتحصيله الذي أسهرَه ومنعه الرقاد ، وعبارته التي هي أشهر من السهاد ، وخطه الذي هو أنضر من أزاهير المهاد . . وقال : أما

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ١٦٥) .

(٢) المصدرية السابق (١٦/ ١٦٩) .

(٣) المصدر السابق (١٦/ ١٩٦) .

دروسه في المحافل فلم أسمع أحداً من الناس يُدرِّس أحسن منه ، ولا أحلى من عبارته ، وحسن تقريره ، وجودة احترازاته ، وصحة ذهنه ، وقوة قريحته ، وحسن نظمه ، توفي في رمضان سنة سبع وعشرين وسبعمئة ببليس ، وحُمل إلى القاهرة ، ودُفن جوار قبَّة الشافعي رضي الله عنه »[1] .

٧ ـ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تقي الدين ، أبو العباس ، الحراني الحنبلي ، شيخ الإسلام ، المتوفى سنة ٧٢٨هـ :

لازم ابن كثير شيخه ابن تيمية ، وأحبه حباً عظيماً ، وأخذ عنه فأكثر من آرائه ، وكان يُفتي برأيه في مسألة الطلاق ، وامتحن بسبب ذلك وأوذي .

ويقول ابن حجر العسقلاني : « وأخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه ، وامتحن بسببه »[2] ورغم أن ابن كثير كان شافعي المذهب ، فإنه كان مخلصاً لابن تيمية ، تأثر به كل التأثر في نبذ البدع والضلالات المستحدثة ومناصرة السنة وأهلها . وفي الجزء السادس عشر من طبعتنا الجديدة للبداية والنهاية نجده يتتبع مواقف الشيخ ابن تيمية المشهودة ، وجهاده البطولي ، فيفرح لانتصاره على[3] التتار وأهل البدع[4] والزيغ ، ويحزن لسجنه ، ويحضر إلى قلعة دمشق عند وفاته ، ويقبل وجهه عند غسله[5] ، ويصف جنازته الكبرى[6] ، التي خرج فيها أهل دمشق ومن حولها من القرى يُودِّعون العالم المصلح المجاهد ، ويرى ابن كثير في هذه الحشود الحزينة أكبر انتصار لدعوة الشيخ الإصلاحية ، ولطمة مؤلمة لأعدائه وحسَّاده .

وقال ابن كثير بعد ترجمة حاشدة أخذها من تاريخ شيخه البِرْزَالي : « وعملت له ـ للشيخ ابن تيمية ـ ختمات كثيرة ورؤيت له منامات صالحة عجيبة ، ورثي بأشعار كثيرة وقصائد مطوَّلة جداً ، وقد أُفردت له تراجم كثيرة ، وصنَّف في ذلك جماعة من الفضلاء ، وسألخص من مجموع ذلك ترجمة وجيزة في ذكر مناقبه ، وفضائله ، وشجاعته ، وكرمه ، ونصحه ، وزهادته ، وعبادته ، وعلومه المتنوعة الكثيرة المجودة ، وصفاته الكبار والصغار ، التي احتوت على غالب العلوم ، ومفرداته في الاختيارات التي نصرها بالكتاب والسنة ، وأفتى بها »[7] .

وبالجملة كان رحمه الله من كبار العلماء ، وممن يُخطئ ويُصيب ، ولكن خطؤه بالنسبة إلى

---

(١) المصدر السابق (١٦/ ٢٩٧) .
(٢) الدرر الكامنة (١/ ٤٠٠) .
(٣) البداية والنهاية (١٦/ ٢٦) .
(٤) البداية والنهاية (١٦/ ٤٣) .
(٥) المصدر السابق (١٦/ ٢١٣) .
(٦) المصدر السابق (١٦/ ٢١٤) .
(٧) المصدر السابق (١٦/ ٢١٤) .

صوابه كنقطة في بحر لجيٍّ ، وخطؤه أيضاً مغفور له ، كما في صحيح البخاري « إذا اجتهدَ الحاكمُ فأصاب له أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » فهو مأجور ، وقال الإمام مالك بن أنس : كلُّ أحدٍ يُؤخذ من قوله ويُترك إلا صاحب هذا القبر[1] .

٨ ـ إبراهيم بن عبد الرحمن الفَزَاري ، برهان الدين ، الشهير « بابن الفركاح » ، المتوفى سنة ٧٢٩ هـ :

سمع ابن كثير عليه « صحيح مسلم » وغيره في الحديث ، وتفقَّه عليه في المذهب الشافعي ، وقال عنه : « كان مقبلاً على شأنه ، عارفاً بزمانه ، مستغرقاً أوقاته في الاشتغال والعبادة ، كثير المطالعة وإسماع الحديث ، وقد سمعنا عليه « صحيح مسلم » وغيره ، وكان يُدرِّس بالمدرسة البادرائية ، وله تعليق على « التنبيه » ، فيه من الفوائد ما ليس يوجد في غيره ، وله تعليق مختصر على « مختصر ابن الحاجب » في أصول الفقه ، وله مصنفات في غير ذلك كبار ، وبالجملة فلم أر شافعياً من مشايخنا مثله ، وكان حسن الشكل ، عليه البهاء والجلالة والوقار ، حسن الأخلاق ، فيه حدَّة ثم يعود قريباً ، وكرمه زائد ، وإحسانه إلى الطلبة كثير . .

توفي بكرة يوم الجمعة سابع جمادى الأولى بالمدرسة المذكورة ، وصُلِّي عليه عقب الجمعة بالجامع ، وحُملت جنازته على الرؤوس وأطراف الأنامل ، وكانت حافلة ، ودُفن عند أبيه وذويه بباب الصغير ، رحمه الله تعالى »[2] .

٩ ـ أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن نعمة ، شهاب الدين ، أبو العبَّاس ، الحجَّار ، المعروف « بابن الشحنة » المتوفى سنة ٧٣٠هـ :

سمع عليه ابن كثير أجزاء حديثية بالإجازات والسَّماعات ، و « صحيح البخاري » ، وقال عنه : « كان شيخاً حسناً ، بهيَّ المنظر ، سليم الصدر ، ممتَّعاً بحواسِّه وقواه ، فإنه عاش مائة سنة مُحَقَّقاً وزاد عليها ، لأنه سمع « صحيح البخاري » من الزَّبِيدي في سنة ٦٣٠هـ ، وأسمعه هو في سنة ثلاثين وسبعمئة في ٩ صفر بجامع دمشق ، وسمعنا عليه يومئذ ، ولله الحمد .

توفي الحجار يوم الاثنين خامس وعشرين صفر من هذه السنة ، وصُلِّي عليه بالمظفري يوم الثلاثاء ، ودُفن بتربة له عند زاوية الدومي ، بجوار جامع الأفرم ، وكانت جنازته حافلة ، رحمه الله »[3] .

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٢١٥) .

(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٢٢٥) .

(٣) البداية والنهاية (١٦/ ٢٣٢) .

١٠ ـ محمد بن حسين بن غيلان ، شرف الدين ، أبو محمد ، البعلبكي الحنبلي المتوفى سنة ٧٣٠هـ :

ختم عليه ابن كثير حفظ القرآن سنة ٧١١هـ ، قال عنه : « سمع الحديث وأسمعه ، وكان يُقرىء القرآن طرفي النهار ، وعليه ختمت القرآن . . ، وكان من الصالحين الكبار ، والعبَّاد الأخيار »[١] .

١١ ـ عبد الله بن يوسف ، شمس الدين ، أبو محمد المقدسي ، ابن العفيف ، المتوفى سنة ٧٣٧هـ :

قرأ عليه ابن كثير كثيراً من الأجزاء الحديثية ، وقال عنه : « قرأتُ عليه عام ثلاث وثلاثين وسبعمئة ـ مرجعنا من القدس كثيراً من الأجزاء والفوائد ، وهو والد صاحبنا جمال الدين يوسف ، أحد مفتي الحنابلة وغيرهم ، والمشهورين بالخير والصلاح »[٢] .

توفي يوم الخميس ثاني وعشرين ربيع الآخر بنابلس ، ودفن بها ، وتأسف الناس عليه ، رحمه الله تعالى .

١٢ ـ القاسم بن محمد بن يوسف ، علم الدين ، أبو محمد البِرْزالي ، الإشبيلي الأصل ، الدمشقي ، المتوفى سنة ٧٣٩هـ :

أخذ عنه ابن كثير علم التاريخ ، وقال : « هذا آخر ما أرَّخه شيخنا الحافظ علم الدين البرزالي في كتابه الذي ذيَّل به على تاريخ شهاب الدين أبي شامة المقدسي[٣] ، وقد ذيَّلتْ على تاريخه إلى زماننا هذا، وكان فراغي من الانتقاء من تاريخه في يوم الأربعاء ٢٠ جمادى الآخرة من سنة ٧٥١هـ».

توفي سنة ٧٣٩هـ وهو محرم فغُسِّل وكُفِّن ولم يُستر رأسه ، وحمله الناس على نعشه وهم يبكون حوله ، وكان يوماً مشهوداً . . ، توفي عن أربع وسبعين سنة[٤] ، رحمه الله .

١٣ ـ يوسف ابن الزكي عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن ، أبو الحجاج ، المِزِّي ، المتوفى سنة ٧٤٢هـ :

لازم ابنُ كثير هذا الشيخ الكبير ، وسمع عليه أكثر تصانيفه ، وتخرَّج على يديه ، وقرأ عليه « صحيح البخاري » ، وقرأ عليه كتاب « تهذيب الكمال في أسماء الرجال » واسمه مذكور في طباق السماعات ، وأصهر إليه فتزوَّج ابنته زينب ، وأصبح قريباً منه في حلقات دروسه ، وقريباً منه في

---

(١) المصدر السابق (١٦/ ٢٣١) .
(٢) المصدر السابق (١٦/ ٢٧٨) .
(٣) المسمّى « الروضتين في أخبار الدولتين » .
(٤) البداية والنهاية (١٦/ ٢٨٨) .

بيته ، ومكثراً من الأخذ عنه ، وتأثر به تأثراً بيناً في العقائد ، فإن المزي كان من أخلص مؤيدي شيخ الإسلام ابن تيمية ، ووصف لنا مرضه الذي مات فيه ، وجنازته المهيبة ، فقال : « وفاة شيخنا أبي الحجّاج المزي : تمرَّضَ أياماً يسيرة ، لا يُشغله عن شهود الجماعة ، وحضور الدروس وإسماع الحديث ، فلما كان يوم الجمعة حادي عشر صفر أسمع الحديث إلى قريب وقت الصلاة ، ثم دخل منزله ليتوضأ ويذهب للصلاة ، فاعترضه في باطنه مغص عظيم ظنَّ أنه قولنج ، وما هو إلا طاعون ، فلم يقدر على حضور الصلاة ، فلما فرغنا من الصلاة أخبرت بأنه منقطع ، فذهبت إليه فدخلت عليه ، فإذا هو يرتعد رعدة شديدة من قوة الألم الذي هو فيه ، فسألته عن حاله ، فجعل يُكرِّر الحمدُ لله ، ثم أخبرني بما حصل له من المرض الشديد، وصلَّى الظهر بنفسه ، ودخل إلى الطهارة ، وتوضأ على البِرْكةِ وهو في قوة الوجع، ثم اتصل به هذا الحال إلى الغد من يوم السبت ، فلما كان وقت الظهر لم أكن حاضره إذ ذاك ، لكن أخبرتنا بنته زينب زوجتي ، أنه لما أذَّن الظهر تغيَّر ذهنه قليلاً ، فقالت : يا أبة أذَّن الظهر ! فذكر الله وقال : أريد أن أصلي ، فتيمَّم وصلَّى ، ثم اضطجع فجعل يقرأ آية الكرسي ، حتى جعل لا يفيض بها لسانه ، ثم قبضت روحه بين الصلاتين ، رحمه الله ، يوم السبت ثاني عشر صفر . . وفي يوم الأحد ثالث عشر صفر صبيحة ذلك اليوم ، غُسِّل وكُفِّن وصُلِّي عليه بالجامع الأَمَوي . . ثم صُلِّي عليه خارج باب النصر . . ودفن في مقابر الصوفية إلى جانب زوجته الصالحة الحافظة لكتاب الله عائشة بنت إبراهيم بن صديق ، غربي قبر الشيخ تقي الدين بن تيمية ـ رحمهم الله أجمعين ـ »[١] .

١٤ ـ محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ، أبو عبد الله الذهبي التركماني ، الفارقي ، الدمشقي ، المتوفى سنة ٧٤٨هـ :

تتلمذ ابن كثير على هذا الشيخ الحافظ : في علوم التفسير ، والحديث ، والتاريخ ، وروى عنه ، وقال في ترجمته : « وفي ليلة الاثنين ثالث شهر ذي الحجة توفي الشيخ الحافظ الكبير ، مؤرخ الإسلام وشيخ المحدثين شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، بتربة أم الصالح ، وصُلِّي عليه يوم الاثنين صلاة الظهر في جامع دمشق ، ودفن بباب الصغير ، وقد ختم به شيوخ الحديث وحفَّاظه ، رحمه الله »[٢] .

١٥ ـ محمود بن عبد الرحمن ، شمس الدين ، أبو الثناء ، الأصبهاني ، المتوفى سنة ٧٤٩هـ :

أخذ ابن كثير عنه علم أصول الفقه ، فقد كان بارعاً في العقليات ، صحيحَ الاعتقاد ، محباً لأهل الصلاح[٣] .

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٢٩٧) .

(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٣٤٠) .

(٣) شذرات الذهب (٨/ ٣٨١) والدرر الكامنة (٥/ ٩٥) والفتح المبين (٢/ ١٥٨) .

اشتغل بتبريز ، وتصدَّر للإقراء بها ، ثم قدم دمشق ٧٢٥هـ ، ودرَّس بالرواحية ، واشتهر أمره بمصر وصنَّف « التفسير الكبير » و « شرح مختصر ابن الحاجب » و « شرح منهاج البيضاوي في أصول الفقه » .

توفي بالقاهرة بالطاعون ، ودفن بها[١] .

• وسمع ابن كثير على عدد من الشيوخ كتباً ، ومشيخات ، وأجزاء وفوائد ، فحُقَّ أن يُذكروا مشايخ له ، وهم :

١ ـ عيسى بن عبد الرحمن بن معالي بن أحمد . . المسند ، شرف الدين ، أبو محمد السمسار في العقار ، مُطَعِّم الأشجار ، المتوفى سنة ٧١٩هـ :

سمع عليه ابن كثير معظم الصحيح ـ صحيح البخاري ـ[٢] .

٢ ـ القاسم بن مظفَّر بن محمود بن أحمد بن الحسن بن هبة الله ، بهاء الدين بن عساكر الدمشقي ، الطبيب ، المتوفى سنة ٧٢٣هـ :

سمع عليه ابن كثير مشيخة في سنة وفاته ، خرَّجها له علم الدين البرزالي ، وقال عنه في « البداية والنهاية » : شيخنا الجليل ، الرُّحلة[٣] .

٣ ـ يحيى بن إسحاق بن خليل بن فارس ، محيي الدين ، أبو زكريا الشيباني الشافعي ، المتوفى سنة ٧٢٤هـ :

سمع عليه ابن كثير « سنن الدراقطني » وغيره[٤] .

٤ ـ محمد بن عمر بن عثمان بن عمر ، عفيف الدين ، الصقلي الدمشقي ، المتوفى سنة ٧٢٥هـ :

قال عنه ابن كثير : « إمام مسجد الرأس ، آخر من حدَّث عن ابن الصلاح » ببعض سنن البيهقي ، سمعنا عليه شيئاً منها »[٥] .

٥ ـ إسماعيل بن المسلم بن الحسن بن النصر ، ضياء الدين ، أبو الفداء الدمشقي ، المعروف بابن الحموي ، المتوفى سنة ٧٢٧هـ :

سمع ابن كثير منه مشيخة خرَّجها له البِرْزَالي[٦] .

---

(١) شذرات الذهب (٨/ ٣٨١) والدرر الكامنة (٥/ ٩٥) والفتح المبين (٢/ ١٥٨) .

(٢) البداية والنهاية (١٦/ ١٤٥) .

(٣) المصدر السابق (١٦/ ١٦٧) .

(٤) المصدر السابق (١٦/ ١٧٨) .

(٥) المصدر السابق (١٦/ ١٨٤) .

(٦) البداية والنهاية (١٦/ ٢٠١) .

٦ ـ محمد بن عبد الملك بن إسماعيل بن العادل أبي بكر بن أيوب ، الملك الكامل ، ناصر الدين ، أبو المعالي ، المتوفى سنة ٧٢٧هـ :

قال ابن كثير : كان له سماع كثير ، سمعنا عليه ، وكان يحفظ تاريخاً جيداً[(١)] .

٧ ـ حمزة بن مؤيد الدين أبي المعالي أسعد . . التميمي ، الدمشقي ، ابن القلانسي ، المتوفى سنة ٧٢٩هـ :

قال الحافظ ابن كثير : سمع الحديث من جماعة ، ورواه ، وسمعنا عليه[(٢)] .

٨ ـ علي بن إسماعيل بن يوسف القونوي التبريزي ، المتوفى سنة ٧٢٩هـ :

سمع ابن كثير عليه مشيخة بين سنة ٧٢٣هـ وسنة ٧٢٩هـ حين قدم القُونَوي إلى دمشق قاضياً[(٣)] .

٩ ـ محمد بن محمد بن سهل الأزدي الغرناطي الأندلسي ، المتوفى سنة ٧٣٠هـ :

سمع ابن كثير عليه « صحيح مسلم » بقراءته في تسعة مجالس قراءة صحيحة[(٤)] .

١٠ ـ أحمد بن محمد بن محمد بن نصر الله . . جمال الدين ، أبو العباس التميمي ، الدمشقي ، ابن القلانسي ، المتوفى سنة ٧٣١هـ :

سمع عليه مشيخة خرَّجها له فخر الدين البعلبكي[(٥)] .

١١ ـ سليمان بن عمر بن سالم بن عمر بن عثمان ، جمال الدين ، الأذرعي ، المتوفى سنة ٧٣٤هـ :

سمع ابن كثير عليه مشيخةً ، خرَّجها له البِرْزالي ، عن اثنين وعشرين شيخاً[(٦)] .

١٢ ـ عمر بن علي بن سالم بن عبد الله ، تاج الدين ، أبو حفص اللخمي ، الإسكندراني ، المعروف « بابن الفاكهاني » ، المتوفى سنة ٧٣٤هـ :

سمع ابن كثير عليه حين قدم دمشق سنة ٧٣٠هـ ، أيام قاضي القضاة الأخنائي ، فأنزله في دار السعادة ، وقال : وسمعنا عليه ومعه[(٧)] .

---

(١) المصدر السابق (١٦/ ٢٠٢) .
(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٢٢٧) .
(٣) المصدر السابق (١٦/ ٢٢٦) .
(٤) المصدر السابق (١٦/ ٢٣٠) .
(٥) البداية والنهاية (١٦/ ٢٤١) .
(٦) المصدر السابق (١٦/ ٢٥٩) .
(٧) المصدر السابق (١٦/ ٢٦١) .

١٣ ـ أبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المنعم بن نعمة ، شمس الدين المقدسي ، النابلسي الحنبلي ، المتوفى سنة ٧٣٧هـ :

سمع عليه سنة ٧٣٣هـ كثيراً من الأجزاء والفوائد[١] .

١٤ ـ عمر بن أبي بكر بن المِيْهنيّ ، البسطي ، فخر الدين ، ابن البخاري ، المتوفى سنة ٧٤٢هـ :

قرأ عليه ابن كثير مختصر المشيخة[٢] .

١٥ ـ علم الدين الجاولي ، المتوفى سنة ٧٤٥هـ :

سمع عليه « مسند الإمام الشافعي » ، وذلك حين مرَّ من دمشق يوم الثلاثاء ٢٥ صفر سنة ٧٤٣هـ في طريقه إلى حماة لمباشرة نيابتها ، وقد رأى ابن كثير عمله في « المسند » ، وشرْحَه عليه ، وأثنى عليه حسن ترتيبه[٣] .

١٦ ـ يوسف بن عبد بن محمد بن يوسف ، جمال الدين ، أبو الحجاج المقدسي ، المتوفى سنة ٧٥٤هـ :

كان من العلماء العبَّاد الورعين محباً للحديث وأهله ، سمع « سنن ابن ماجه » من الحافظ ابن بدران النابلسي ، وسمع منه ابن كثير[٤] .

١٧ ـ أحمد بن عبد الله الجهني ، شهاب الدين البارزي الحموي ، نزيل دمشق ، المتوفى سنة ٧٥٥هـ :

سمع ابن كثير منه « الغيلانيات »[٥] ، وقد كان يُحدِّث بها عن غازي الحلاوي .

١٨ ـ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بركات بن شمس الدين المعروف « بابن الخباز » الحنبلي ، المتوفى سنة ٧٥٦هـ :

سمع منه المِزي ، والذهبي ، والسبكي ، وابن جماعة ، وابن رافع ، وابن كثير ، وغيرهم[٦] .

١٩ ـ عبد العزيز بن محمد ، عز الدين ، أبو عمر بن جماعة ، المتوفى سنة ٧٦٧هـ :

سمع عليه ابن كثير بقراءته شيئاً كثيراً ، حين قدم دمشق في أواخر رجب سنة ٧٢٥هـ من

---

(١) المصدر السابق (١٦/ ٢٧٨) .
(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٣٠٥) .
(٣) المصدر السابق (١٦/ ٣١١) .
(٤) ابن حجر : الدرر (١/ ١٩٠) . شذرات الذهب (٨/ ٣٠٢) .
(٥) ابن حجر : الدرر (١/ ١٩٠) . شذرات الذهب (٨/ ٣٠٣) .
(٦) شذرات الذهب (٨/ ٣١٠) .

مصر[1] ، ويبدو مما جاء عند ابن حجر أن ابن جماعة في هذه الرحلة انتفع بابن كثير ، في تخريج أحاديث الرافعي[2] .

٢٠ ـ محمد بن موسى الأنصاري الدمشقي ، الشهير « بابن الشيرجي » ، المتوفى سنة ٧٧٠هـ :

سمع عليه ، وكان ابن الشيرجي سمع من الفخر ابن البخاري جزء الأنصاري ، وحدَّث به ، وتفرَّد به عنه[3] .

ومن طرائف الأمور الدالة على فهم ابن كثير في تلقي العلم وحرصه عليه أنه لم يكن يأنف أن يأخذ ممن هو أصغر منه سناً حينما يكون ذلك الشاب متميزاً ، فقد عرفنا أن ابن كثير استفاد أشياء من الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي المولود بمصر سنة ٧٢٥هـ والمتوفى سنة ٨٠٦هـ ، قال السخاوي : « كان شيوخ عصره يبالغون في الثناء عليه بالمعرفة كالسبكي والعلائي وابن جماعة وابن كثير . . . وكذا صَرَّح ابن كثير باستفادته منه تخريج شيءٍ وقف على المحدثين ، وقرأ عليه شيئاً ، وذكر في شرحه للألفية أنه سمع منه حديثاً من مشيخة قاضي المارستان »[4] .

● وأجاز لابن كثير :

من علماء بغداد ابن الدواليبي المتوفى سنة ٧٢٨هـ .

ومن علماء مصر أبو موسى القرافي ، وأبو الفتح محمد الدبوسي ، ويوسف الخُتَني ، وعلي بن عمر الوَاني[5] ، وغير واحد .

● لم أجد في المصادر القديمة ـ التي وقفت عليها ـ ما يدل على أن ابن القيم محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المتوفى سنة ٧٥١هـ كان شيخاً لابن كثير ، وإنما هو صاحبه ومعاصره ، ورفيقه في التلمذة والطلب على شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، وفي ترجمة ابن كثير لابن القيم بعد وفاته يقول ابن كثير : « صاحبنا »[6] ويقول : « وكنت من أصحب الناس له ، وأحب الناس إليه »[7] .

ب ـ تلاميذه :

أثمر التلقي عن الشيوخ في حياة ابن كثير ؛ إلى التبكير بظهور الحافظ ابن كثير عالماً مشهوراً ،

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ١٨٣) .
(٢) إنباء الغمر بأنباء العمر (١/ ٤٦) .
(٣) شذرات الذهب (٦/ ١٧٦) .
(٤) الضوء اللامع ؛ للسخاوي (٤/ ١٧٣) .
(٥) الدرر الكامنة ؛ لابن حجر (١/ ٤٠٠) ، ودرر العقود للمقريزي (١/ ٤٠١) .
(٦) البداية والنهاية (١٦/ ٣٥٣) .
(٧) البداية والنهاية (١٦/ ٣٥٤) .

ومدرساً مرموقاً ، وشيخاً مقصوداً ، يدخل المدارس العامة بثقة واعتبار ، ويترأس المدارس المتخصصة بكفاءة واقتدار .

وأول مدرسة درَّس فيها المدرسة النجيبية ، وقد تقدم أنه سكنها مع أسرته ، وأول درس فيها كان يوم ١١ جمادى الأولى من سنة ٧٣٦هـ ، حيث فسَّر قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] وقال في تاريخه : « وكان الدرس حافلاً أثنى عليه الحاضرون وتعجبوا من جمعه وترتيبه »[١] .

ثم ولي التدريس في المدرسة الفاضلية بعد أن شغرت عن الإمام الذهبي ، وتولَّى مشيخة الحديث في المدرسة الصالحية ، ودار القرآن والحديث التنكزية ، ودار الحديث الأشرفية الجوانية[٢] .

• وافتتح دروس التفسير في المسجد الأموي تحت قبة النسر صباح يوم ٢٨ شوال سنة ٧٦٧ هـ وكان درساً حافلاً ومشهوداً في تفسير سورة الفاتحة ، حضره الطلاب والقضاة والأعيان[٣] .

• وكان عضواً في لجان الامتحان ، لاختبار الطلاب والشبان النابهين في اللغة والحفظ ؛ فحضر يوم ٢٠ شعبان من سنة ٧٤٧ هـ لامتحان صبي عمرهُ ست سنين يحفظ القرآن ، ويؤدي القرآن بإتقان ، وفي يوم ٢٠ شعبان من سنة ٧٦٣ هـ حضر مع العلماء لامتحان بدر الدين محمد بن الشيخ كمال الدين بن الشربيني ، وكان يحفظ كثيراً من شواهد اللغة .

• وحضر شاب من بلاد تبريز وخراسان يزعم أنه يحفظ « صحيح البخاري » و« صحيح مسلم » ، و« جامع المسانيد » لابن كثير ، و« الكشاف » للزمخشري ، فلما كان يوم الأربعاء سلخ شهر رجب سنة ٧٦٣هـ ، قرأ في الجامع الأموي بالحائط الشمالي منه ، عند باب الكلاَّسة ، من أول « صحيح البخاري » إلى أثناء كتاب العلم عنه من حفظه ، وأنا أقابل عليه من نسخة بيدي[٤] .

وقال الشاب : أنا ما خرجت من بلادي إلا إلى القصد إليك ، وأن تجيزني ، وذكرك في بلادنا مشهور[٥] .

• كل هذا يجعل التلاميذ المتلقِّين عن ابن كثير لا يُحصون عدداً ، ولا يُعرفون كثرة ، فقال

---

(١) المصدر السابق (١٦/ ٢٦٩) .
(٢) المصدر السابق (١٦/ ٢٦٩ و٣٤٠) .
(٣) البداية والنهاية (١٤/ ٣٢١) .
(٤) المصدر السابق (١٦/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣) .
(٥) المصدر السابق (١٦/ ٤٣٣) .

مترجموه : « وتلامذته كثيرة »[1] و « أخذ عنه كثيرون »[2] و « خرَّج كثيراً من الطلاب »[3] .

ونجد هؤلاء المعرِّفين بابن كثير والمترجمين لحياته ومآثره يُغفلون أسماء تلاميذه ، ولا يذكرون إلا اسم تلميذه ابن حجي ! فأين ذهبت أسماء تلك الكثرة الكاثرة من التلاميذ والمريدين ؟! .

• وتعليل ذلك فيما نرى ـ والله أعلم ـ أن المشايخ والعلماء الكبار ينقسمون إلى ثلاثة أصناف :

الأول : ينشغل بالشأن العلمي العام ، وإلقاء الدروس الخاصة والعامة ، وممارسة الوظائف الرئاسية والإدارية ، ويتفرغون في بيوتهم وأوقاتهم الخاصة للتصنيف والتأليف .

والثاني : صنف يلقي دروسه الخاصة والعامة ، ويكرس كلَّ وقته لطلابه ومريديه ، ممن يختار من المتفوقين والنابهين . وهؤلاء يتشرَّبون علومه ومنهجه ، ويحملون اسمه ، ويُذيعون بين الناس دعوته وطريقته .

والثالث : صنف يجمع بين الأمرين ، ويُحقِّق الانتشار العام ، وتخريجَ التلاميذ الأَكْفَاء المتميزين .

ولعل شيخنا العلاَّمة ابن كثير من الصنف الأول ، ممن شغل الناس بدروسه في حياته ، وشغل الناس بكتبه ومصنفاته بعد مماته .

كما يلاحظ أن كتب التراجم إنما تُعنى بذكر التلاميذ الآخذين عن الشيوخ المُعَمَّرين ، ولم يكن ابن كثير منهم ، لأسانيدهم العالية ، فتأمل مثلاً أسماء المذكورين في الكتب من الآخذين عن الحَجَّار بسبب كونه معمراً عالي السنَد .

■ ومع ذلك فإننا نستطيع العثور على عدد من أسماء التلاميذ ممن نصَّت الكتب على أخذه أو سماعه أو إجازته من شيخه الكبير ابن كثير ، وهم :

١ ـ محمد بن موسى بن محمد بن سند بن نعيم ، شمس الدين أبو العباس اللخمي ، المتوفى سنة ٧٩٢هـ :

أذن له في الإفتاء العلائي ، وابن كثير[4] .

٢ ـ يحيى بن يوسف بن يعقوب بن أحمد بن يحيى ، محيي الدين ، أبو زكريا الرحبي ، المتوفى سنة ٧٩٤هـ :

---

(١) شذرات الذهب (٨/ ٣٩٩) .
(٢) عصر سلاطين المماليك ، لمحمود رزق سليم (٤/ ١٤٤) .
(٣) دائرة المعارف للبستاني (٣/ ٤٧٧) .
(٤) شذرات الذهب (٨/ ٥٥٨) .

قال الحافظ ابن حجر : لازم ابن كثير ، وكتب عنه فوائد حديثية ، أكثرها يتعلق بالصحيح[1] .

٣ ـ محمد بن بهادر بن عبد الله ، بدر الدين الزركشي التركي ، المتوفى سنة ٧٩٤هـ :

قال ابن حجر : « رحل إلى دمشق ، فأخذ عن ابن كثير الحديث ، وقرأ عليه مختصره في علوم الحديث ، ورثاه عند وفاته ببيتين من الشعر هما :

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا وجادوا بدمعٍ لا يبيدُ غزير
ولو مزجوا ماء المدامع بالدما لكان قليلاً فيك يا بن كثير[2]

٤ ـ محمد بن محمد بن عنقة ، أبو جعفر البسكري ثم المدني ، المتوفى سنة ٨٠٤هـ :

قال ابن العماد : وحمل عن ابن رافع ، وابن كثير[3] .

٥ ـ سعد بن يوسف بن إسماعيل بن يوسف ، سعد الدين النواوي ، المتوفى سنة ٨٠٥ هـ :

قال النُّعيمي : حمل عن ابن كثير ، وقرأ عليه تأليفه « اختصار علوم الحديث » وأذن له ابن كثير بالفتوى[4] .

٦ ـ محمد بن محمد بن محمد بن الخضر ، شمس الدين الزبيري العيزري الغزي الشافعي المولود بالقدس سنة ٧٢٤هـ والمتوفى سنة ٨٠٨هـ .

قال السخاوي : « ودخل دمشق فأخذ بها عن ابن كثير و . . . إلخ »[5] .

٧ ـ أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عمر بن رضوان ، شهاب الدين الحريري ، الدمشقي ، المعروف بالسلاوي ، المتوفى سنة ٨١٣هـ :

قال السخاوي : سمع الحديث على التقي بن رافع ، وابن كثير ، وقرأ عليهما[6] .

٨ ـ علي بن زيد بن علوان بن صبرة بن مهدي بن حريز ، أبو الحسن ـ وكناه بعضهم أبا زايد ـ الردماوي الزُّبَيْدي ، وتسمَّى بأخرة عبد الرحمن ، المتوفى سنة ٨١٣هـ :

قال السخاوي : سمع من اليافعي ، والشيخ خليل ، وابن كثير[7] .

---

(١) المصدر السابق (٨/ ٥٧٥) والدرر الكامنة (٤/ ٣٤٠) .
(٢) الدرر الكامنة ؛ لابن حجر (٣/ ٣٩٧) .
(٣) شذرات الذهب (٩/ ٧٣) .
(٤) الدارس في أخبار المدارس (١/ ٣٢٠) .
(٥) الضوء اللامع (٩/ ٢١٨) .
(٦) الضوء اللامع ؛ للسخاوي (٢/ ٨١) .
(٧) الضوء اللامع (٥/ ٢٢١) .

٩ ـ أحمد بن إسماعيل بن خليفة بن عبد العال ، أبو العباس ، شهاب الدين بن الحسباني ، المتوفى سنة ٨١٥هـ :

قال ابن فهد : وأخذ عن الحافظين : ابن كثير ، وابن رافع[١] .

١٠ ـ محمود بن عمر بن محمود بن إيمان ، شرف الدين الأنطاكي ثم الدمشقي الحنفي المتوفى في شعبان سنة ٨١٥هـ .

قال السخاوي : « قدم من بلده إلى حلب ثم إلى دمشق فسمع بها من ابن كثير والصلاح الصفدي وغيرهما »[٢] .

١١ ـ مسعود بن عمر بن محمود بن أنمار ، شرف الدين ، الأنطاكي النحوي ، نزيل دمشق ، المتوفى سنة ٨١٥هـ :

قال ابن العماد : قدم دمشق ، وأخذ عن الصَّفدي ، وابن كثير ، وغيرهما[٣] .

١٢ ـ أحمد بن العلاء حجِّي بن موسى بن أحمد . . شهاب الدين ، أبو العباس ، ابن حجّي السعدي الحُسْباني ، المتوفى سنة ٨١٦هـ :

تخرَّج في علوم الحديث بالحافظين : ابن كثير ، وابن رافع[٤] . وأثنى ابن حجي على شيخه ابن كثير ، وصرَّح بأنه لازمه ست سنين[٥] . وقد ذيّل على « البداية والنهاية » وسماه « تاريخ ابن حجي » وهو مطبوع .

١٣ ـ محمد بن سلمان بن محمد ، شمس الدين البغدادي الأصل الدمشقي الصالحي الشافعي الصوفي القادري ، نزيل القاهرة ، المولود في حدود سنة ٧٥٠هـ والمتوفى سنة ٨٢٠هـ .

قال السخاوي : « وطلب العلم ولازم التاج السبكي وفتح الدين ابن الشهيد والعماد ابن كثير ، وسمع منه مصنَّفه في علوم الحديث وفي فضل الجهاد وكتب له إجازة حسنة »[٦] .

١٤ ـ محمد بن أحمد بن معالي ، أبو المعالي ، شمس الدين الحَبَتِّي[٧] ، المتوفى سنة ٨٢٤هـ :

قال السخاوي : سمع بدمشق من متأخري أصحاب الفخر ، كابن أميلة ، وكذا سمع من

---

(١) لحظ الألحاظ (ص ٢٤٥) .
(٢) الضوء اللامع (١٠/ ١٤٢) .
(٣) شذرات الذهب (٨/ ١٧٠) .
(٤) الدارس (١/ ١٤٢) .
(٥) شذرات الذهب (٩/ ١٧٣) .
(٦) الضوء اللامع (٧/ ٢٥٦) .
(٧) قيده السخاوي فقال : « بمهملة ثم موحدة مفتوحتين ثم مثناة مشددة » .

العماد ابن كثير[1] ، وقال ابن حجر : كان ينقل عن شيخه ابن كثير الفوائد الجليلة »[2] .

١٥ ـ محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف ، أبو الخير شمس الدين بن الجزري الشافعي ، المتوفى سنة ٨٣٣هـ :

صرَّح ابن الجزري بالسماع والرواية عن ابن كثير في كتابه « المصعد الأحمد في ختم مسند الإمام أحمد »[3] . وذكر مترجموه أنه أخذ عنه الحديث ، وأذن له ابن كثير بالإفتاء[4] .

١٦ ـ محمد بن أحمد بن حاجي ، شمس الدين التبريزي ثم المقدسي الشافعي المعروف بابن عذيبة . ولد قبيل سنة ٧٥٥هـ بتبريز ، قال السخاوي : « ودخل مصر . . . وحلب . . . والشام في زمن ابن كثير وابن رافع وحضر عندهم » مات بمكة سنة ٨٣٥هـ[5] .

١٧ ـ أحمد بن علي ، تقي الدين المقريزي المولود سنة ٧٦٦هـ والمتوفى سنة ٨٤٥هـ ، قال في كتابه : « درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة » (١/ ٤٠١ ، الترجمة ٣٢٧) « سمعت عليه بعدما كُف بصره الحديث المسلسل بالأوليات ، وأجاز لي مسموعاته ومروياته » .

١٨ ـ عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عَيَّاش ، زين الدين أبو الفرج وأبو بكر الدمشقي الأصل ، المكي الشافعي المقرئ المتوفى سنة ٨٥٣هـ بمكة . قال السخاوي : « سمع حسبما كان يخبر على العمادين : ابن كثير وابن السراج »[6] .

وأجاز الحافظ ابن كثير لعدد من الطلبة ، منهم : محمد بن أحمد بن موسى بن نجاد ، ناصر الدين أبو عبد الله النابلسي المقدسي ، قال السخاوي : « أجاز له في سنة ست وخمسين الحفاظ الثلاثة : ابن كثير والعلائي والشهاب أبو محمود . . . إلخ »[7] .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

---

(١) الضوء اللامع (٧/ ١٠٧) .
(٢) إنباء الغمر (٧/ ٤٠٨) .
(٣) مسند الإمام أحمد ، لأحمد شاكر (١/ ٣١) .
(٤) مفتاح السعادة (١/ ٣٩٢) وذيل السيوطي (ص ٣٧٦) .
(٥) الضوء اللامع (٦/ ٣٠١) .
(٦) الضوء اللامع (٤/ ٥٩) .
(٧) الضوء اللامع (٧/ ١١٢) .

سادساً : كتبه

تمهيد :

عاش ابن كثير ـ رحمه الله ـ حياة علمية متنوعة ومتكاملة ، بدأها بنشأته الأولى في أسرته العلمية ، وانتهى بها بتعليمه العالي في دمشق الفيحاء التي تتسامى بالشيوخ والمؤلِّفين الكبار ، ويُحيط به عن ملاصقة وقرب : أستاذه ابن تيمية ، وحموه ـ أبو زوجه ـ أبو الحجاج المِزِّي ، وشيخه الذهبي ، وصاحبه ابن القيم ، وكلُّهم كتب وألَّف ، وشنَّف الآذان بما أملى وصنَّف .

وإذ تهيأ لابن كثير أن يدخل التدريس من أوسع أبوابه ، فإن منصب الأستاذية الرئيس الذي بلغه يستدعي الجمع والتأليف . وكان من الطبيعي جدًّا أن يكتب يراع الحافظ والمفسر المؤرِّخ الفقيه كتباً عديدة في موضوعاتها ، ومتميِّزة في أسلوبها ، ومتقدِّمة في جوهرها ، وفيها الرسائل الصغيرة ، والكتب الموسوعية الكبيرة .

• وكان من الملفت حقًّا أن يبدأ ابن كثير بالتأليف مبكراً ، وقد ظهر هذا في تأليف كتاب « الأحكام على أبواب التنبيه » في صغره[1] ، ووقف عليه شيخه برهان الدين الفزاري ، وأُعجب به ، وأثنى عليه .

كما وضح في قدوم عز الدين بن جماعة ـ شيخ ابن كثير ـ إلى دمشق سنة ٧٢٥هـ ، واستقدم ابن كثير ، وانتفع به في تخريج أحاديث الرافعي[2] ، مما يدل على نبوغ في علم الحديث ، وسبق في فن تخريج الأحاديث .

واستمر هذا الشغف بالتأليف حتى نيف على السبعين ، وكُفَّ بصرُه في إتمام كتابه الحديثي الكبير ؛ كما صرح لتلميذه ابن الجزري حين قال له : « لا زلت أكتب فيه « جامع المسانيد » في الليل ، والسراج ينوص ، حتى ذهب بصري معه »[3] .

• وانتشرت كتبه في حياته ، فقُرئتْ عليه نسخٌ من كتابه « اختصار علوم الحديث » وقرئت « السيرة النبوية » من تأليفه في المسجد الأموي تحت قبة النسر[4] ، ووصل كتابه « جامع المسانيد »

---

(١) شذرات الذهب ؛ لابن العماد (٨/ ٣٩٧) .

(٢) إنباء الغمر بأنباء العمر (١/ ٤٥) .

(٣) مسند الإمام أحمد ؛ لأحمد شاكر (١/ ٤٠) .

(٤) البداية والنهاية (١٤/ ٢٩٤) .

إلى خراسان وادَّعى شاب أعجمي حفظ أجزاء منه ، وجاء إلى دمشق ليطلب إجازة مؤلفه[١] .

• وشهد العلماء الأفذاذ على جودة تآليفه وإتقانها ، كما شهدوا على انتشارها وشيوعها بين الناس ، فهذا الذهبي يقول : « له تصانيف مفيدة »[٢] ويؤيد ذلك العيني فيقول : « له مصنفات عديدة ومفيدة[٣] . ويقول ابن حجر « وصنف التصانيف الكثيرة في التفسير والتاريخ والأحكام » ويقول : « وسارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع بها الناس بعد مماته »[٤] .

ويقول ابن حبيب : « سمع وجمع وصنَّف ، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنَّف ، وحدَّث وأفاد ، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رياسته العلم في التاريخ والحديث والتفسير »[٥] .

• فاكتملت مؤهلات التأليف والعطاء عند ابن كثير ، وأصبح من أجلِّ العلماء المصنِّفين في موضوعات محبَّبة ومتنوعة ، تلقائية وغير متكلفة ، تهتدي بالكتاب والسنة ، وتتعدى حدود الزمن ، فتخاطب الأجيال المتتابعة ، وتظهر في العصور التالية وكأنها كُتبت لها !! .

فأي توفيق إلهي حالفه وهو يجمع مادة كتبه ، وأي إخلاص رافقه وهو يصوغ كلماته وجمله ، وأي نفَسٍ طاهر أجراه على أوراقه ، فكُتب له القَبُول عند الله وعند خلقه ؟! .

آ ـ الكتب المطبوعة والمخطوطة :

١ ـ تفسير القرآن العظيم :

أَلَّفه في عشرة أجزاء قبل عام ٧٤٢هـ تقريباً[٦] ، لكنه ظل ينقح فيه إلى آخر حياته وأحال إليه في « البداية والنهاية كثيراً » .

وطبع على حساب الملك عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ بتحقيق الشيخ رشيد رضا ، ومع تفسير البغوي في تسع مجلدات ، في مطبعة المنار سنة ١٣٤٣ ـ ١٣٤٧هـ ، ومعه كتاب « فضائل القرآن » ملحقاً بالتفسير بعد أن عُثر عليه في آخر النسخة الخَطِّيَّة المَكِّيَّة . ثم أُعيد مستقلاً عن البغوي سنة ١٣٨٤هـ في أربع مجلدات من القطع الكبير عن طبعة المنار ، وعلَّق حواشيه عبد الوهاب

---

(١) المصدر السابق (١٦/ ٤٣٢) .
(٢) الدرر الكامنة (١/ ٣٧٤) .
(٣) النجوم الزاهرة (١١/ ١٢٣) .
(٤) إنباء الغمر بأنباء العمر (١/ ٤٦) .
(٥) شذرات الذهب (٨/ ٣٩٨) .
(٦) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٢) طبعة دار ابن كثير ، تفسير الآية : ١٠٤ من سورة الأنبياء ، ففيها ذكر ابن كثير شيخه المزي ، ودعا له : « فسح الله له في عمره ، ونسأ في أجله » والشيخ المزي توفي سنة ٧٤٢هـ .

عبد اللطيف ، الأستاذ في كلية الشريعة بجامعة الأزهر ، ونشرته مكتبة النهضة بمكة .

وطُبع في ثمان مجلدات « طبعة كتاب الشعب » بمصر ، بتحقيق البنا ، غنيم ، عاشور ، وألحقوا بها فهارس علمية وموضوعية . وطبع سنة ١٤١٨هـ في ثماني مجلدات في « دار طيبة » بالرياض ، بتحقيق سامي بن محمد السلامة ، عن نسختين كاملتين وأكثر من عشر نسخ أخرى ، يستوعب مجموعها التفسير كله .

وطبع في مصر ولبنان طبعات تجارية ، ليس فيها تصحيح ولا تحقيق ولا مراجعة .

وطبع في دار ابن كثير سنة ١٣١٥هـ في أربع مجلدات ، طبعة جديدة مصحَّحة ومنقحة ومضبوطة بالشكل ، ومقابلة على عدة طبعات . ويعاد طبعه الآن بتحقيق جديد ومقابلة على نسخة خطية . وفي مقدمته فضائل القرآن كما نصّ على ذلك المؤلف .

● وهو من أكثر كتب التفسير بالرواية فائدة ، لأن ابن كثير يتكلم على الأسانيد ، وينقد الرواة ، وينصفهم جرحاً وتعديلاً ، ولا يُرسل الأحاديث إرسالاً كما يفعل غالب المحدثين ، بل يتكلّم عليها تصحيحاً وتضعيفاً .

● وتتجلى أهميته بين كتب التفسير من خلال منهجه العلمي التالي :

١ ـ التفسير الجملي لمعاني الآيات ، بألفاظ فصيحة وعبارات رشيقة ، وأسلوب سهل ممتنع .

٢ ـ تفسير القرآن بالقرآن .

٣ ـ ذكر الأحاديث بأسانيدها ومصادرها .

٤ ـ الحكم على الأحاديث .

٥ ـ الإعراض عن كثير من الإسرائيليات .

٦ ـ المحاكمة والترجيح من غير غلو ولا عصبية .

٧ ـ التفويض في تفسير آيات الأسماء والصفات .

● وقد أثنى العلماء من قبلُ على تفسير ابن كثير ، فقال الذهبي عن المؤلف : كان « مُفسِّراً نقَّاداً »[(١)] وقال السيوطي : « لم يُؤلَّف على نمطه مثله »[(٢)] . وقال الشوكاني : « من أحسن التفاسير ، إن لم يكن أحسنها ، جمع فيه فأوعى ، ونقل المذاهب والأخبار والآثار ، وتكلَّم بأحسن الكلام وأنفسه »[(٣)] .

وقال الشيخ أحمد شاكر : « أحسن التفاسير التي رأينا وأجودها وأدقها بعد تفسير إمام

---

(١) ذيل الحسيني (ص ٥٨) .

(٢) ذيل السيوطي (ص ٣٦١) .

(٣) البدر الطالع (١/ ١٥٣) .

المفسِّرين أبي جعفر الطبري ، ولسنا نُوازن بينهما وبين أيِّ تفسير آخر مما بأيدينا ، فما رأينا مثلهما ولا ما يُقاربهما »[1] وقال : « يعرف به ـ الطالب ـ كيف ينقد الأسانيد والمتون ، وكيف يُميِّز الصحيح من غيره ، فهو كتاب في المعنى تعليميّ عظيم ، ونفعه جليل كثير »[2] .

• وكتب الله تعالى لهذا التفسير الانتشار والقبول في بلاد الشام ، وبخاصة في الخمسين سنة الأخيرة تقريباً ، وسمعت من شيخنا الشيخ نايف العباس ـ رحمه الله ـ تأكيد ذلك ، ولعلَّ مرجعَه النهضةُ الحديثية التي يشهدها العالم الإسلامي كله ، ولله الحمد والمِنَّة .

٢ ـ فضائل القرآن :

وُجد هذا الكتاب في ختام تفسير القرآن العظيم ، وتناول فيه ابن كثير الأحاديث الواردة في فضل القرآن ، وتاريخ القرآن ، وجمعه ، وكتابته ، والأحرف السبعة ، وكيفية ترتيله ، وسار فيه على منوال ما ذكره البخاري عقب كتاب التفسير في كتاب فضائل القرآن .

وطبع مع التفسير أحياناً ، وطبع مستقِلاًّ أحياناً ، وقد نصّ ابن كثير في تفسيره على أن كتابَ فضائل القرآن هو مقدمة للتفسير .

كما أشار إلى ذلك في « البداية والنهاية ، حيث يقول أثناء الكلام على الاتفاق على مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه : « كما قررنا ذلك في كتاب « فضائل القرآن » الذي كتبناه مقدمة في أول كتاب التفسير »[3] .

ومنهجه يتضمن : ١ ـ البدء بآيات القرآن الكريم في موضوع الفصل . ٢ ـ حشد الروايات الكثيرة من الأحاديث بأسانيدها ، مبتدئاً بأحاديث البخاري ومسلم . ٣ ـ الاستشهاد بأقوال الصحابة والتابعين . ٤ ـ تصحيح بعض الأحاديث وبيان الراجح من الروايات والكلام على بعض رجال السند . ٥ ـ استنباط العبر والفوائد والأحكام .

وطُبع الكتاب مستقلاً في كل من بيروت ومصر (القاهرة) ومنها :

ـ طبعة مؤسسة علوم القرآن ـ بيروت بتحقيق : محمد إبراهيم البنا .

ـ طبعة دار الحديث ـ القاهرة ـ تحقيق : سعيد عبد المجيد محمود .

٣ ـ البداية والنهاية :

هو كتاب في التاريخ الإسلامي العام ، ويشتمل على تاريخ ما قبل الإسلام من الأنبياء والأمم ،

---

(١) عمدة التفسير (١/ ٦) .
(٢) عمدة التفسير (١/ ٦) .
(٣) البداية والنهاية (٥/ ٣٤٧) .

وسيرة الرسول ﷺ ومعجزاته ، وتاريخ المسلمين بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحوادثه مرتبة حسب السنين ، ونهايته إلى سنة ٧٧٤هـ كما نص عليه غير واحد من العلماء ، والموجود منه إلى حوادث سنة ٧٦٨هـ . أما « النهاية » ففي الملاحم والفتن وأشراط الساعة وأحوال الآخرة .

وهذا الكتاب التاريخي الكبير هو الذي تقوم كوكبة من العلماء والمحققين المتخصصين بتحقيقه ، وتضطلع دار ابن كثير بنشره موثقاً ومفهرساً وفق أحدث الطرق العلمية والموضوعية المعاصرة . وسنفرد لدراسته قسماً خاصًا من هذه المقدمات المهمة .

٤ ـ السيرة النبوية مبسوطة :

ذكر الحافظ ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية » (٦/ ٢٧١) أنه كتب السيرة النبوية مطوَّلة ومختصرة .

كما ذكر ذلك في « تفسير القرآن العظيم »[١] في تفسير سورة الأحزاب (٣/ ٥٩٠) فقال : « وهذا كله مقرر مفصَّل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة الذي أفردناه موجزاً وبسيطاً ، ولله الحمد والمنَّة » .

ولم تصلنا هذه السيرة المبسوطة المطوَّلة ، ولم يذكرها المترجمون لابن كثير القدامى ، مما جعل الدكتور مصطفى عبد الواحد يستلُّ السيرة النبوية من « البداية والنهاية » معتقداً أن المجلدات الأربع التي أطلق عليها اسم السيرة النبوية هي السيرة النبوية المطوَّلة ، ولنسمعه يقول في المقدمة : « ويبدو أنه حين ألَّف كتابه الضخم « البداية والنهاية » قد أدمج تلك السيرة فيه : وأن شهرة ذلك الكتاب وانتشاره في الأنحاء قد جعل الناس يقرؤون تلك السيرة فيه ، ولم يعدلها كيان مستقل ككتاب ، وإذا كان ابن كثير قد ذكر أن له السيرة النبوية مبسوطة ـ أي مطوَّلة ـ فإنه لا يُعقل أن يكتب فيها أكثر من ذلك القسم الموجود بكتابه « البداية والنهاية »[٢] ، وهو استنتاج معقول .

٥ ـ الفصول في سيرة الرسول ﷺ :

وهو السيرة المختصرة كما يشير المؤلف في تاريخه وتفسيره . أو « سيرة صغيرة »[٣] كما ذكر مترجموه المتقدمون ، أما المتأخرون فيقولون : « الفصول في سيرة الرسول ﷺ »[٤] وقد وصلتنا نسخها الخطية ولله الحمد .

وتشتمل على بابين : الأول في سيرة رسول الله ﷺ ، والثاني : في أحواله وأعلام نبوته وخصائصه .

---

(١) طبعة دار ابن كثير الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م .
(٢) السيرة النبوية ؛ لابن كثير (١/ ١٢ ـ ١٣) .
(٣) شذرات الذهب (٨/ ٣٩٩) .
(٤) كشف الظنون ؛ لحاجي خليفة (٢/ ١٩٢) .

وطُبع الكتاب في القاهرة سنة ١٣٥٧هـ طبعة رديئة تحت اسم « الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ » عن مخطوطة مكتبة عارف حكمة بالمدينة المنورة ، وفيها تصحيف وتحريف ، وسقط وأخطاء مطبعية كثيرة .

وقد قام الدكتور محيي الدين ديب مستو والدكتور محمد العيد الخطراوي بتحقيق هذه السيرة الكاملة على ثلاث نسخ خطية ، واحدة من مكتبة عارف حكمة ، واثنتان من تركية ، ودوَّنا من خلال العمل الملاحظات التالية :

١ ـ الكتاب سيرة مختصرة قائمة بذاتها ، وليس اختصاراً لكتاب آخر ، والاسم هو « الفصول في سيرة الرسول ﷺ » .

٢ ـ اشتمال هذه السيرة على فصل الخصائص النبوية ، وهو فصل يستحق أن يكون كتاباً مستقلاً ، وبخاصة إذا علمنا أن السيرة المبسوطة التي أُدرجت في البداية والنهاية ـ حسب رأي د. مصطفى عبد الواحد ـ قد خلت من هذا الفصل .

٣ ـ في الغالب إن ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ توقف في تأليف هذا الكتاب عند نهاية السيرة النبوية ، وما يتبعها من الدلائل ، والشمائل ، والخصائص ، ولم يترك شيئاً في اختصار أيام الإسلام كما وعد في المقدمة ؛ فقال : « فإنه لا يَجملُ بأولي العلم معرفة الأيام النبوية والتواريخ الإسلامية ، وهي مشتملة على علوم جمَّة ، وفوائد مهمَّة ، لا يستغني عالم عنها ، ولا يُعذر في العروِّ منها . وقد أحببت أن أُعلِّق تذكرة في ذلك لتكون مدخلاً إليه وأنموذجاً وعوناً له وعليه ، وعلى الله اعتمادي ، وإليه تفويضي واستنادي ؛ وهي مشتملة على ذكر نسب رسول الله عليه الصلاة والسلام وسيرته وأعلامه ، وذكر أيام الإسلام بعده إلى يومنا هذا ، مما يمسُّ حاجة ذوي الأرب إليه ، على سبيل الاختصار إن شاء الله تعالى »[١] .

٦ ـ « **اختصار علوم الحديث** » :

وهو كتاب في مصطلح الحديث ، سمَّاه ابن كثير « مختصر علوم الحديث » أو « اختصار علوم الحديث » .

قال ابن حجر في الدرر الكامنة : « وقد اختصر كتاب ابن الصلاح ، وله فيه فوائد »[٢] .

وقال حاجي خليفة في كشف الظنون : « أضاف إلى ذلك الفوائد الملتقطة من « المدخل إلى كتاب السنن » ؛ للبيهقي » .

---

(١) الفصول في سيرة الرسول ﷺ ـ الطبعة العاشرة ـ سنة ١٤٢٤هـ ـ دار الكلم الطيب بدمشق .
(٢) إنباء الغمر بأنباء العمر (١/ ٤٦) .

وسمَّاه السيوطي في ذيل تذكرة الحفَّاظ : « علوم الحديث » . ويُقدِّم ابن كثير ـ رحمه الله ـ لهذا الكتاب مبيِّناً منهجه فيقول :

« سلكت وراءه ـ يعني ابن الصلاح ـ واحتذيت حذاءَه ، واختصرتُ ما بسطه ، ونظمت ما فرَطه . . » ويفترض على ابن الصلاح تنويعه أقسام الحديث إلى خمسة وستين نوعاً ، وقابلية تقسيم هذه الأنواع إلى ما لا يُحصى ، فيقول : « وفي هذا كله نظر، بل في بسطه هذه الأنواع إلى هذا العدد نظر ، إذ يمكن إدماج بعضها في بعض ، وكان ذلك أليق مما ذكره ، ثم إنه فرق بين متماثلات منها بعضها عن بعض ، وكان اللائق ذكر كل نوع إلى جانب ما يناسبه ، ونحن نُرتِّب ما نذكره على ما هو الأنسب ، وربما أدمجنا بعضها في بعض طلباً للاختصار والمناسبة ، وننبه على مناقشات لا بد منها »[١] .

وقد نشر الكتاب بمكة المكرمة سنة ١٣٥٣هـ بتصحيح الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة باسم « اختصار علوم الحديث ، أو الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث » ، ثم شرحه الشيخ أحمد شاكر وطبع بالقاهرة سنة ١٣٥٥هـ باسم « الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث » ، ثم أعاد شرحه ، والتعليق عليه وتصحيحه ، وطُبع بالقاهرة سنة ١٣٧٠هـ ، ومما جاء في مقدمته : « وهو كتاب فذٌّ في موضوعه ، ألَّفه إمام عظيم من الأئمة الثقات المحقِّقين بهذا الفن ، ونسخه نادرة الوجود ، وكنا نسمع عنه في الكتب ، ثم رآه الأخ الأستاذ الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة المدرس بالحرم المكي عندما كان بالمدينة المنورة سنة ١٣٤٦هـ ، وكانت نسخته موجودة في مكتبة شيخ الإسلام أحمد عارف حكمة ، تحت رقم ٥٧ مصطلح ، وهي نسخة قديمة مكتوبة في طرابلس الشام سنة ٧٦٥هـ منقولة عن نسخة أخرى قوبلت على نسخة صحيحة معتمدة ، قرئت على المصنف ، وعليها خطه كما أثبت ذلك ناسخها ـ رحمه الله ـ »[٢] ، ثم نشر مؤخراً في مجلدين بتحقيق علي حسن عبد الحميد الحلبي في مكتبة المعارف بالرياض .

٧٤ ـ الاجتهاد في طلب الجهاد :

وهو رسالة مطبوعة ، كتبها ابن كثير للأمير منجك نائب السلطنة بدمشق حين تولَّاها مرة ثانية (٧٧١ ـ ٧٧٥هـ) لإرسالها « إلى ما جاور البحر من البلاد ، ليأخذوا بحظهم من الجهاد »[٣] .

وصرَّح ابن كثير في المقدمة بأنه كتبها بأمر نائب السلطان بدمشق « لأنه نائب الإمام ، وفيما أمر طاعة لله ولرسوله »[٤] وطبعت بالقاهرة سنة ١٣٤٧هـ ، وعنيت بنشرها جمعية النشر والتأليف الأزهرية .

---

(١) اختصار علوم الحديث (ص : ١٩) .
(٢) الباعث الحثيث ؛ للشيخ أحمد شاكر (ص : ٤ ـ ٥) .
(٣) الاجتهاد في طلب الجهاد (ص : ٥) .
(٤) الاجتهاد في طلب الجهاد (ص : ٥) .

وتوجد من الرسالة نسخة مخطوطة بمعهد المخطوطات ، في جامعة الدول العربية بالقاهرة .

وذكرها حاجي خليفة في « كشف الظنون » وقال : « رسالة لعماد الدين إسماعيل بن عمر ، المعروف بابن كثير ، كتبها للأمير منجك لما حاصرَ الفرنج قلعة إياس »[١] .

وكان الفرنج قد هاجموا ثغر الإسكندرية ، وانتقلت عصائبهم منها إلى طرابلس لترويعها مع أهلها الآمنين بالقتل والأسر والتشريد .

وتمثل وثيقةً تاريخية وعلمية في فضل عبادة الجهاد ووجوبها ، وارتباطها الوثيق بصيانة مجد الأمة وعزتها ، والدفاع عن حياضها ، كلما استباح حرماتها معتد أثيم ، أو طامع لئيم .

وهي مختصر من كتاب أشمل ، كما ذكر المؤلف « وقد كنت جمعت في ذلك مجلداً بسيطاً ، فاختصرت منه وسطاً وسيطاً »[٢] .

٨ ـ جامع المسانيد والسُّنَن الهادي لأقوي سَنَن :

وهو أكبر كتب الحافظ ابن كثير في الحديث النبوي ، وأكثرها نفعاً ، وآخرها تأليفاً في حياته ، ولنسمع العلماء الكبار قدماء ومعاصرين ممن يتكلم على هذا الكتاب العظيم :

قال ابن حجر في « إنباء الغمر بأنباء العمر » (١/ ٤٧) : « ولما رتب الحافظ شمس الدين بن المحب ـ المعروف بالصامت المتوفى سنة ٧٨٩هـ ـ مسند أحمد على ترتيب حروف المعجم ـ حتى في التابعين المكثرين عن الصحابة ـ أعجب ابن كثير ، فاستحسنه . ورأيت النسخة بدمشق بخط ولده « عمر » فألحق ابن كثير ما استحسنه في الهوامش من الكتب الستة ، ومسندي أبي يعلى والبزار ، ومعجمي الطبراني ، ماليس في المسند ، وسمَّى الكتاب « جامع المسانيد والسنن » وكُتبت منه عدة نسخ نُسبت إليه . . وهو الآن في أوقاف « المدرسة المحمودية » المتن ترتيب ابن المحب ، والإلحاقات بخط ابن كثير في الهوامش والعصافير (الجذاذات)[٣] وقد كنت رأيت منه نسخة بيَّضها عمر بن العماد بن كثير مما في المتن والإلحاق ، وكتب عليه الاسم المذكور » .

وقال ابن العماد في « شذرات الذهب » (٨/ ٣٩٨) : « من مصنفاته كتاب في جمع المسانيد العشرة » .

---

(١) كشف الظنون (١/ ١٠) .

(٢) الاجتهاد في طلب الجهاد (ص : ٥) .

(٣) العصافير : الجذاذات ، لأنها إذا وقعت من الكتاب تطير كالعصافير ؛ وفي أساس البلاغة : الوريقات التي تعلق عليها الفوائد .

وقال الحسيني في « ذيل تذكرة الحفَّاظ » (ص : ٥٧٢) : « كتاب الهدي والسنن ، المعروف بجامع المسانيد ، رتبَّه على الأبواب[١] ، وهو من أنفع كتبه » .

وقال الشوكاني في « البدر الطالع » (١/ ١٥٣) : « الهدي والسنن في أحاديث المسانيد والسنن » ، جمع فيه بين مسند الإمام أحمد ، والبزار ، وأبي يعلى ، وابن أبي شيبة ، إلى الكتب الستة » .

وقال حاجي خليفة في « كشف الظنون » (١/ ٥٧٣) : « جامع المسانيد والسنن ، كتاب عظيم ، فيه أحاديث الكتب العشرة في أصول الإسلام » .

وقال أحمد شاكر في مقدمة عمدة التفسير (ص : ٣٦) عن جامع المسانيد : منه في دار الكتب المصرية سبع مجلدات ، مجموع أوراقها (٢٢٨٠) ، وفي معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية أجزاء منه .

وطُبع الكتاب في بيروت ـ بدار الفكر في سنة ١٩٩٩م في (٣٦) جزءاً ضمن (١٨) مجلداً + المقدمة ، وقد وثَّق أصوله وخرج حديثه وعلَّق عليه الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي .

وقد جاء في المقدمة[٢] :

كيف نبتت فكرة « جامع المسانيد والسنن » ؟

يدين ابن كثير في وضع هذا الكتاب إلى شيخه الحافظ جمال الدين المِزي ، ومما لا ريب فيه أن تطور فهرسة الأحاديث النبوية بطريقة صنع الأطراف لها قد نضج على يد الحافظ المِزي بمؤلفه النفيس « تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف » الذي وضعه للكتب الستة ولواحقها[٣] .

والعمل الذي شرع الحافظ ابن كثير به عملٌ واسع مترامي الأطراف وعملية خطيرة أقدم عليها في أخريات حياته ، فهو آخر كتاب صنَّفه ، وقد كلفه عناء كبيراً .

ولكن كيف نبتت فكرة هذا المصنف الشامل ؟

كان الحافظ ابن كثير قد استوعب « تحفة الأشراف » استيعاباً وافياً ، وكان يحتفظ بنسخة من التحفة ، وقد وضع عليها بعض التقييدات ، واستدرك عليها .

---

(١) الصحيح ترتيبه على أسماء التابعين الرواة عن الصحابي .
(٢) مقدمة جامع المسانيد (ص : ٢٣٦) .
(٣) نشر الشيخ عبد الصمد شرف الدين الكتاب لأول مرة في الهند ، ثم أعاد الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف تحقيقه على سبعة وثلاثين جزءاً بخط المؤلف وعلى نسخ لرفاقه وتلامذته كُتبت في حياته ، ومنها نسخة علم الدين البرزالي التي قابلها بنفسه . وربطت هذه الطبعة الأحاديث ببعضها ، كما ربطت بمُسند الإمام أحمد ، وأضيف إليها عشرة كتب أخرى ، ونشرته دار الغرب الإسلامي منذ سنة ١٩٩٩م في ثلاثة عشر مجلداً .

وكلنا نعرف ما لأهمية مسند الإمام أحمد في دواوين السنة ، وقد تمنى الحافظ الذهبي أن يُقيِّض الله لهذا المسند من يرتبه ويخدمه . وقد أقام الله لترتيبه الشيخ الإمام الصالح الورع أبا بكر بن عبد الله المحب الصامت ، فرتبه على معجم الصحابة ، ورتب الرواية كذلك كترتيب كتاب الأطراف ، وتعب به كثيراً .

ثم إن الشيخ الإمام مؤرخ الإسلام ، وحافظ الشام ، عماد الدين أبا الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير رحمه الله ، أخذ هذا الكتاب المرتب من مؤلفه ، وأضاف إليه أحاديث الكتب الستة ، ومعجم الطبراني الكبير ، ومسند البزار ، ومسند أبي يعلى المَوْصلي ، وأجهد نفسه كثيراً ، وتعب فيه تعباً عظيماً ، فجاء لا نظير له في العالم(١) .

والحافظ ابن كثير كان يحفظ المسند عن ظهر قلب .

إذن فقد استبان منهج العمل أمام الحافظ ابن كثير ، ألا وهو تفريغ مسند الإمام أحمد على تحفة الأشراف ، وتفريغ معجم الطبراني الكبير ، وهو مصنف أساساً على أسماء الصحابة ، وليضف إليه مسند البزار من الزوائد على الكتب الستة ، وكذا مسند أبي يعلى الموصلي . وليكنْ كل هذا في قالب أسماء الصحابة ، وليكن أسد الغابة لابن الأثير هو أساس العمل .

٩ ـ التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل :

اتفق كثير من المترجمين لابن كثير على اسم هذا الكتاب « التكميل » ، صرح به ابن كثير في « البداية والنهاية (٨٠/ ١٥٠) . و (٩/ ٤١) و (١٠/ ٤١ ، ٧٦ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٧ ، ١٩٧ ، ٣١٣) و (١١/ ٢٥٧ و٢٧٧) .

وذكره حاجي خليفة في « كشف الظنون » والبغدادي في « هدية العارفين » باسم « التكملة في معرفة الثقات والضعفاء »(٢) قال الحسيني في ذيل تذكرة الحفَّاظ : « ومن تصانيفه : التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل ، جمع بين كتاب التهذيب « تهذيب الكمال ؛ للمزي » والميزان « ميزان الاعتدال ؛ للذهبي » وهو في خمس مجلدات »(٣) .

وقال ابن العماد في « شذرات الذهب » : واختصر « تهذيب الكمال » وأضاف إليه ما تأخَّر في

---

(١) لقد استفدنا من هذا الكتاب العظيم عند قيامنا بتأليف كتاب « المسند الجامع » لمعرفة ما سقط من الأحاديث في الطبعة الميمنية من مسند الإمام أحمد ، فاستدركناها منه ، وذلك ظاهر في حواشي « المسند الجامع » الذي نشرته دار الجيل سنة ١٩٩٢م (بشار) .

(٢) كشف الظنون (١/ ٤٧١) وهدية العارفين (١/ ٢١٥) .

(٣) ذيل تذكرة الحفاظ (ص : ٥٧) .

« الميزان » سمّاه « التكميل »[1] ، ولابن كثير إضافات وزيادات في الجرح والتعديل ، كما أنه رتبه على حروف المعجم .

والكتاب مخطوط ، وقد رأى الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة المجلد الأخير منه في إحدى مكتبات المدينة المنورة بخط قديم ، منسوخ في حياة المؤلف من نسخته[2] .

وفي دار الكتب المصرية نسخة مصورة من نسخة خطية ناقصة رقمها (٢٤٢٧/ ب) وتقع في مجلدين[3] .

وفي الرباط مخطوطة رقمها (٢١٩/ك) وتقع في (٩٩) ورقة مخرومة الآخر[4] . ويعتبر التكميل مقدمة لكتاب « جامع المسانيد » كما صرح ابن كثير ـ رحمه الله ـ في مقدمة « التكميل »[5] .

١٠ ـ مسند الفاروق أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وأقواله على أبواب العلم :

ذكره ابن كثير رحمه الله تعالى في «اختصار علوم الحديث» فقال : كما بسطناه في مسند عمر »[6] وقال في « البداية والنهاية » : « كما بسطنا ذلك في ترجمة عمر بن الخطاب وسيرته التي أفردناها في مجلد ، ومسنده والآثار المروية عنه مرتباً على الأبواب في مجلد آخر ، ولله الحمد والمنة »[7] .

وقد بدأ الحافظ هذا المسند بأحكام الطهارة . . فالصلاة . . إلى آخر العبادات ، واشتمل على أبواب السير والملاحم ، والمعجزات ، والفضائل ، وغيرها . والكتاب مخطوط بخط ابن كثير ، بدار الكتب المصرية رقم (١٥٢) حديث تيمور ، ويقع في (٢٢٠) لوحة[8] .

وحققه الدكتور مطر الزهراني ، وحصل به على درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى بمكة المكرمة[9] . وقد طبع بتحقيق عبد المعطي قلعجي بدار الوفاء ـ المنصورة سنة ١٤١١هـ .

١١ ـ طبقات الشافعية :

ألَّف الحافظ ابن كثير هذا الكتاب قبل « البداية والنهاية » لأنه أحال إليه فيها كثيراً كلما ذكر

---

(١) شذرات الذهب (٨/ ٣٩٨) .
(٢) مقدمة الباعث الحثيث (ص : ٢٠٢) .
(٣) تهذيب الكمال ، المقدمة (١/ ٦٤) .
(٤) جامع المسانيد ، المقدمة (١/ ٢٠٤) .
(٥) ابن كثير الدمشقي ، للدكتور محمد الزحيلي (ص : ١٧٠) .
(٦) الباعث الحثيث (ص : ٥٧) .
(٧) البداية والنهاية (١٠/ ٢٨) .
(٨) جامع المسانيد ، المقدمة (١/ ٢٠٤) .
(٩) الإمام ابن كثير ؛ للندوي (ص : ١٢٨) .

أحد أصحاب الإمام الشافعي ، أو أحد العلماء الأعلام المصنِّفين في المذهب .

وقد ترجم في أوله لإمام المذهب محمد بن إدريس الشافعي سنة ٢٠٥هـ وقال : « أفردنا له ترجمة مطوَّلة في أول كتابنا « طبقات الشافعيين . . »[١] ثم قال : « وقد ذكر من شعره في السُّنَّة وكلامه فيها، وفيما قال من الحكم والمواعظ طرفاً صالحاً في الذي كتبناه في أول طبقات الشافعية»[٢] .

توجد من الكتاب نسخة خطية بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة ، كما رأينا (١١١) لوحة بالجامعة الإسلامية ، مصورة من مكتبة الكتاني بالرباط[٣] .

وقد طبع سنة ١٤١٣هـ بمصر بتحقيق محمد علي زينهم والدكتور أحمد عمر هاشم ، كما طُبع قسم منه بعنوان : « المسائل الفقهية التي انفرد بها الإمام الشافعي دون إخوانه من الأئمة » بقلم د . إبراهيم صندقجي ، مكتبة العلوم والحكم وحقَّق الدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر « مناقب الإمام الشافعي » في مكتبة الإمام الشافعي ـ ١٤١٢هـ[٤] .

ب ـ الكتب المفقودة[٥] :

١ ـ **الكواكب الدراري في التاريخ** : وهو كتاب في التراجم ، ذكره حاجي خليفة في « كشف الظنون » (٢/ ١٥٢١) والبغدادي في « « هدية العارفين » (١/ ٢١٥) وقالا : « انتخبه ابن كثير من تاريخه الكبير » وهو في ثلاث مجلدات ، ولم يرد له أثر في فهارس المخطوطات ، إلا المجلد الثالث في تركيا ـ إستنبول عمومي برقم (٥٠١٦) .

٢ ـ **سيرة أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه** : ذكر ابن كثير كتابه هذا في « البداية والنهاية » في مواضع متفرقة ، وقال عنه في (٣/ ٢٢٤ و٢٣١) : وقد ذكرنا ترجمة الصِّدِّيق رضي الله عنه ، وسيرته ، وأيامه ، وما روى من الأحاديث ، وما روى من الأحكام في مجلد ، ولله الحمد والمنة » وأشار إلى هذا في التفسير (٤/ ٢٢٤) وفي اختصار علوم الحديث (ص : ١٨٣) .

٣ ـ **سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه** : ذكره في « البداية والنهاية » (١٠/ ٢٨) في مواضع أيضاً ، وقال عن أبي بكر وعمر : « وقد ذكرنا كيفية إسلامه في كتابنا الذي أفردناه في سيرته ،

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ١٣و٢٠) و (١٣/ ٢١٣) و (١٣/ ١٤٣) و (١٥/ ٣٤) .
(٢) البداية والنهاية (١١/ ١٣ و٢٠) و (١٣/ ٢١٣) و (١٣/ ١٤٣) و (١٥/ ٣٤) .
(٣) الفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص : ٥٠) .
(٤) الإمام ابن كثير ؛ للندوي (ص : ١٢٤) .
(٥) هي كتب ذكرها المؤلف ، أو مترجموه ، ولم تظهر في فهارس المخطوطات حتى الآن ، ولم نفقد الأمل من وجودها أو بعضها على الأقل .

وأوردنا فضائله وشمائله، وأتبعنا ذلك بسيرة الفاروق أيضاً، وأوردنا ما رواه كل منهما عن النبي ﷺ من الأحاديث ، وما روي عنه من الآثار والأحكام والفتاوى ، فبلغ ذلك ثلاث مجلدات ، ولله الحمد والمنة .

وأفاد الندوي[1] أن كلامه على الشيخين يتضمن كتابين في ثلاث مجلدات :

١ ـ كتاب في سيرة أبي بكر ومسنده ، في مجلد .

٢ ـ كتابه في سيرة عمر ومسنده ، في مجلدين : الأول في سيرته ، والثاني في مسنده ، وقد تقدم الكلام على مسنده برقم (١٠) .

٤ ـ **أحاديث الأصول** : ذكره ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٥٥) في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١١٥] وقال : وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك ، وقد ذكرنا طرفاً منها صالحاً في كتاب أحاديث الأصول » .

٥ ـ **شرح البخاري** : شرع ابن كثير في شرح البخاري ولم يكمله ، واتفق مترجموه على ذلك ، فقد ذكر ذلك حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٥٥٠) والبغدادي في هدية العارفين (١/ ٢٥١) وقال ابن العماد في شذرات الذهب (٨/ ٣٩٩) والداودي في طبقات المفسِّرين (١/ ١١١) : « وشرح قطعة من البخاري » . وقال ابن حجر في الدرر الكامنة (١/ ٣٩٩) : و« شرع في شرح البخاري » . وقال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١١/ ٢٥٠) أثناء ترجمة الإمام محمد بن إسماعيل البخاري سنة (٢٥٦هـ) : صاحب الصحيح ، وقد ذكرنا له ترجمة حافلة في أول شرحنا لصحيحه » وقال فيها (٣/ ١٨٩) عند الكلام على حديث بدء الوحي : « وتكلَّمنا مطوَّلًا في أول شرح البخاري في كتابه بدء الوحي ، إسناداً ومتناً ، ولله الحمد والمِنَّة » . ونراه في التفسير (٣/ ٤٥٤) أيضاً يُحيل إلى « أول صحيح البخاري » ويتساءل الدكتور مسعود الندوي : إلى أي حد بلغ ابن كثير في شرحه؟ ويجيب بأنه لا يمكن الإجابة بيقين ، ولكنه يذكر بعض الإرشادات التي تفيد شرحه لما يلي :

ـ الباب الأول : كيف كان بدء الوحي ؟ .

ـ الكتاب الأول : كتاب الإيمان .

٦ ـ **الأحكام الصغير** ، **أو أحكام التنبيه** : ذكره ابن كثير ـ رحمه الله ـ في كتاب « اختصار علوم الحديث » (ص : ١٩١) فقال : « وقد تكلَّمنا على ذلك في كتاب الأحكام الكبير والصغير » .

وقال ابن العماد في الشذرات (٨/ ٣٩٧) : « وصنف في صغره كتاب الأحكام على أبواب التنبيه » .

---

(١) الإمام ابن كثير ؛ للندوي (ص : ١٤٨) .

وقال ابن حجر في « إنباء الغمر بأبناء العمر » : « أَلَّف في صغره أحكام التنبيه » . وتقدم أنه عرضه على شيخه برهان الدين الفزاري فأُعجب به ، وأثنى عليه .

ونصل إلى نتيجة سليمة وسديدة[1] : أن « الأحكام الصغير » هو كتاب أحكام التنبيه ، أو الأحكام على أبواب التنبيه ، وقد طبع في مجلدين بمؤسسة الرسالة باسم « إرشاد الفقيه » والعنوان استظهره المؤلف .

٧ ـ **الأحكام الكبير** : شرع ابن كثير في تأليف كتاب كبير في الأحكام ، ولكنه لم يتمه ، وهو في الفقه . وقد ذكره في البداية والنهاية (٣/ ٣٣٣) فقال : « وسنذكر جميع ما يختص بالأنبياء مع خصائص نبينا في أول كتاب النكاح من كتاب الأحكام الكبير حيث ذكره الأئمة المصنفون ، اقتداء بالإمام الشافعي ـ رحمه الله » .

وذكر الكتاب ابن العماد في شذرات الذهب (٨/ ٣٩٨) والداودي في طبقات المفسرين (١/ ١١١) وقالا : « وشرع في أحكام كثيرة حافلة ، كتب فيها مجلدات إلى الحج » .

وقال السيوطي في ذيل تذكرة الحفاظ (ص : ٣٦١) : « وشرع في كتاب كبير في الأحكام ولم يتمَّه » . وذكر المقريزي أنّه عمل منه مجلدين في الطهارة ومجلداً من الصلاة[2] .

٨ ـ **تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب** : أشار إليه ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٥/ ٢٦٩) أثناء ترجمة ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦هـ فقال : ومختصره في الفقه من أحسن المختصرات ، انتظم فيه فوائد ابن شاس ، ومختصره في أصول الفقه استوعب فيه عامة فوائد الأحكام لسيف الدين الآمدي ، وقد من الله تعالى عليَّ بحفظه ، وجمعت كراريس في الكلام على ما أودعه فيه من الأحاديث النبوية ، ولله الحمد » .

وقال ابن قاضي شهبة في الطبقات (٣/ ١١٤) : « وخرج الأحاديث الواقعة في مختصر ابن الحاجب ، وكتب رفيقه الشيخ تقي الدين بن رافع لنفسه منه نسخة » .

٩ ـ **كتاب الصيام** : ذكره ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم » (١/ ٢١٥) و (٣/ ٥١٢) وقال بسطنا هذه المسألة مستقصاة في « كتاب الصيام » الذي أفردناه ، ولله الحمد والمنة » .

١٠ ـ **المقدِّمات** : ذكره في مختصر مقدمة ابن الصلاح ، وأحال إليه (ص : ٥٧) : «وأما كون (المرسل) حجةً في الدين ، فذلك يتعلق بعلم الأصول ، وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا «المقدمات» .

وقد عدَّه محمد عبد الرزاق حمزة في كتبه (ص : ٢٧) من كتاب اختصار علوم الحديث ، وهو في علم أصول الفقه .

---

(١) انظر هذه الحقيقة مفصلة في كتاب « الإمام ابن كثير » ، للندوي (ص : ١٣٤) .
(٢) درر العقود الفريدة (١/ ٤٠١) .

١١ ـ مناقب الشافعي . ذكره تلميذه المقريزي في درر العقود الفريدة[(١)] .

١٢ ـ مناقب ابن تيمية : ذكره ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٦/ ٢١٥) في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ فقال : « وسنفرد له ترجمة على حدة إن شاء الله تعالى » وقال : « وقد أُفردت له تراجم كثيرة ، وصنَّف في ذلك جماعة من الفضلاء وغيرهم ، وسألخص من مجموع ذلك ترجمة وجيزة في ذكر مناقبه وفضائله ، وشجاعته وكرمه ، ونصحه ، وزهادته وعبادته ، وعلومه المتنوعة الكثيرة المجودة ، وصفاته الكبار والصغار التي احتوت على غالب العلوم ومفرداته في الاختيارات التي نصرها بالكتاب والسنة ، وأفتى بها » .

ولا نستطيع الجزم بأن ابن كثير وفَّى بما وعد به ، ولا تسعفنا كتب التراجم بمعرفة ذلك .

١٣ ـ اختصار كتاب المدخل إلى كتاب السنن للبيهقي : ذكره ابن كثير في مقدمة اختصار علوم الحديث ، لابن الصلاح (ص ٢٩) فقال : « وقد اختصرته ـ المدخل إلى كتاب السنن ـ أيضاً ، بنحو هذا النمط من غير وكس ولا شطط » وهذا يدل على تقدم على اختصار كتاب المدخل إلى كتاب السنن . وقد عدَّه محمد عبد الرزاق حمزة في كتبه (ص ٢٧) من كتاب اختصار علوم الحديث .

١٤ ـ شرح التنبيه ؛ لأبي إسحاق الشيرازي : ذكره ابن كثير في « البداية والنهاية » عند ترجمة أبي إسحاق الشيرازي ، المتوفى سنة ٤٧٦هـ ، (١٣/ ٢١٢) وسمَّاه « شرح التنبيه » ، وكان يحفظ « التنبيه » ويستحضره إلى آخر وقت ،كما في الإنباه ، لابن حجر (١/ ٤٦) ، وقد خرج أحاديثه ورتبه على أبواب الفقه كما تقدم .

١٥ ـ بيع أمهات الأولاد : ذكره في « البداية والنهاية » (٥/ ٤٣١) في فصل سراري رسول الله ﷺ حين ولدت له جاريته مارية إبراهيم ، فقال ﷺ : « أعتقها ولدها » وقال ابن كثير : « وقد أفردنا لهذه المسألة ، وهي بيع أمهات الأولاد ، مصنَّفاً مفرداً على حدته ، وحكينا فيه أقوال العلماء ، بما حاصله يرجع إلى ثمانية أقوال ، وذكرنا مستند كل قول ، ولله الحمد والمنة » .

١٦ ـ سيرة منكلي بغا الشمسي : ذكره السخاوي في « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » (ص ١٨٦) : « وأفرد العماد ابن كثير سيرة منكلي بغا سماها : ما ينتقى ويبتغى في سيرة المعز السيفي منكلي بغا » وهو أحد مماليك الملك الناصر حسن ، ونائبه على دمشق (٧١٤ ـ ٧٦٨هـ) وكان مهاباً عاقلاً يتكلم في عدة علوم ، ويحترم ابن كثير ويكرمه ويستشيره . توفي منكلي بغا سنة ٧٧٤هـ بمصر .

---

(١) درر العقود الفريدة (١/ ٤٠١) .

ج ـ الأجزاء الحديثية[1] :

١ ـ جزء في الأحاديث الواردة في المهدي : ذكره ابن كثير في « البداية والنهاية » (٦/ ٣٦٨) والنهاية (١/ ٣٠) .

٢ ـ جزء في حديث كفارة المجلس : ذكره في البداية والنهاية (١١/ ٢٧٢) في ترجمة مسلم بن الحجاج ، المتوفى سنة ٢٦١هـ .

٣ ـ جزء في فضل يوم عرفة : ذكره ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم » (١/ ٤٣٠) عند تفسيره الآية رقم ١٩٩ من سورة البقرة ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

٤ ـ جزء في الصلاة على النبي ﷺ في التشهد : ذكره ابن كثير في « مناقب الشافعي » في المسائل الفقهية التي انفرد بها الإمام الشافعي ، وأنها فرض عند الشافعي (ص ٨٦) ـ والكتاب مأخوذ من « طبقات الشافعية » .

٥ ـ جزء في ذكر الأحاديث الواردة في قتل الكلاب : أشار إليه في « البداية والنهاية » (١٦/ ٣٤٣) معلقاً على أمر نائب السلطان بقتل الكلاب سنة ٧٤٩هـ ، بعد أن فشا الطاعون في الشام .

٦ ـ جزء في الصلاة الوسطى : ذكره في « تفسير القرآن العظيم » (١/ ٢٩٤) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] .

٧ ـ جزء في ميراث الأبوين مع الإخوة : ذكره ابن كثير ـ رحمه الله ـ في « تفسير القرآن العظيم » (١/ ٤٥٩) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ... فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ . . ﴾ [النساء : ١١] .

٨ ـ جزء في الرد على حديث السجل : ذكره في « تفسير القرآن العظيم » (٣/ ٢٠٠) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

٩ ـ جزء في حديث الصور : ذكره ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم » (٢/ ١٤٦) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ [الأنعام : ٧٣] . وفي « النهاية » في الفتن والملاحم (١٧/ ١٨٠) .

١٠ ـ جزء في الذبيحة التي لم يُذكر اسم الله عليها : ذكره ـ رحمه الله ـ في «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١٧٠) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام : ١٢١] .

---

(١) أشار إليها ابن كثير ـ رحمه الله ـ في كتبه ، أو ذكرها العلماء المترجمون له ، وهي مفقودة لم تصل إلينا بعد .

١١ ـ جزء في الأحاديث الواردة في فضل الأيام العشرة من ذي الحجة : ذكره ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم » (٣/ ٢٧٢) أثناء تفسير قوله تعالى : ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾ [الحج : ٢٨] .

١٢ ـ جزء في الرد على كتاب رفع الجزية عن يهود خيبر : ذكره في البداية والنهاية (٤/ ٤٥٠) وقد ادعوا أن النبي ﷺ أسقط عنهم الجزية ، فقام العلماء يفندون دعواهم الباطلة ، وأسهم ابن كثير في إبطال ذلك .

١٣ ـ جزء في ذكر تطهير المساجد : ذكره الحافظ في « تفسير القرآن العظيم » (١/ ٢٢٦) في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٥] و (٣/ ٣٦٤) أثناء تفسير قوله تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ [النور : ٣٦] .

١٤ ـ جزء مفرد في فتح القسطنطينية : ذكره ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم » (١/ ٤٥١) أثناء تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ . . ﴾ [آل عمران : ٥٥] .

١٥ ـ جزء في زواج النبي ﷺ بأم سلمة : ذكره في كتاب « الفصول في سيرة الرسول ﷺ » (ص : ٢٤٥) وبين فيه أن عمر المقول له : قم فزوّج النبي ﷺ ، إنما هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لا ابن أم سلمة عمر بن أبي سلمة ، فقد كان صغيراً لا يصح أن يكون وليّاً في عقد النكاح .

١٦ ـ جزء مفرد في حديث إنكار رسول الله ﷺ الزواج من عزَّة بنت أبي سفيان : ذكره الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في « الفصول في سيرة الرسول ﷺ » (ص : ٢٤٩) وفي « البداية والنهاية » (٨/ ١٧٤) والحديث في صحيح مسلم (٢٥٠١) وفيه أن أبا سفيان عرض على النبي ﷺ الزواج بأم حبيبة ، وهو خطأ ظاهر ، وإنما كانت (عزة) فاعتذر النبي ﷺ ، لأن الجمع بين الأختين حرام .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

ثامناً : مكانته العلمية والاجتماعية

تمهيد :

لقد تبوَّأ الحافظ المفسر المؤرِّخ الفقيه إسماعيل بن كثير مكان الصدارة والاحترام بتحصيله العلمي وتآليفه المدهشة ، وتسنَّم مكان الحفاوة والاهتمام بفتاويه الدقيقة ، ومواقفه الجريئة .

ورغم أنه أصبح من كبار العلماء ، فإنه لم يصل إلى التأثير في الشأن العام ، وبخاصة في الحياة الاجتماعية والسياسية كتأثير شيخه ابن تيمية ، ولكنه ترك تغييراً هادئاً ، ما زال يفعل فعله الثقافي والحضاري إلى يومنا هذا ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وهو يتمتع بحضور تام ، وعقل وقَّاد ، وقلم سيَّال ، وشخصية محترمة ومتميزة ، لا يُداهن في الحق ، ولا يتهاون في إنكار البدع ، ولا يُماري في نبذ الخرافات ، وليس بخِبٍّ فلا يخدعُ ولا يُخادَع ، ولا يحني رأسه ، ولا يكسر قلمه ؛ مرائياً أو متطامناً .

لقد جمع بين الرزانة والقوة ، والرَّصانة والعزيمة ، وتجنَّب التطرف والحِدَّة ، وظهر في المجالس العلمية الخاصة والعامة شافعياً ملتزماً ، ومفكراً مصلحاً ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويثبت بقلمه ولسانه ما يُريد بتبصر وإخلاص ، لا يخاف في الله لومة لائم ، فينظر إليه الناس بالتقدير والمحبة والإعجاب ، وسنرقب ذلك عن كثب وتمعن في مكانته العلمية والاجتماعية .

أ ـ مكانته العلمية :

● الفتاوى : أصبح ابن كثير في دمشق من المفتين الكبار ، أذن له في الإفتاء الشيخ جمال الدين أحمد بن محمد المعروف بابن القلانسي المتوفى سنة ٧٣١هـ ، ووصفه أقرانه بالفقيه المفتي ، والإمام المفتي البارع ، وبأنه طارت فتاواه إلى البلاد ، ونجتزىء من سيرة حياته فتاوى تدلُّ على تضلع في الفقه مع الإنصاف والحصافة :

ـ قال الحافظ في « البداية والنهاية » (١٦/ ٢٥١) : « وفي يوم الثلاثاء ٢٨ ذي القعدة سنة ٧٣٣هـ رُكِّب على الكعبة باب حديد أرسله السلطان مرصَّعاً من السنط الأحمر ، كأنه أبنوس ، مركب عليه صفائح من فضة زنتها خمسة وثلاثون ألفاً وثلاثمئة وكسر ، وقُلع الباب العتيق ، وهو من خشب السَّاج ، وعليه صفائح ، تسلَّمها بنو شيبة ، وكان زنتها ستين رطلاً ، فباعوها كل درهم بدرهمين ، لأجل التبرك . وهذا خطأ وهو ربا ، وكان ينبغي أن يبيعوها بالذهب لئلا يحصل ربا بذلك » .

ـ وقال في « البداية والنهاية » (١٦/ ٤٠٦) : وفي سنة ٧٦١هـ صدر « الأمر بإلزام القلندرية بترك حلق لحاهم وحواجبهم وشواربهم ، وذلك محرَّم بالإجماع حسب ما حكاه ابن حزم ، وإنما ذكره بعض الفقهاء بالكراهية » وكان اللائق أن يُؤمروا بترك الحشيشة الخسيسة ، وإقامة الحدِّ عليهم بأكلها وسكرها ، كما أفتى بذلك بعض الفقهاء » .

ـ وقال في « البداية والنهاية » (١٦/ ٣٥٤) سنة ٧٥١هـ : ومن العجائب والغرائب التي لم يتفق مثلها ، ولم يقع من نحو مئتي سنة وأكثر ، أنه أُبطل الوقيد بجامع دمشق ليلة النصف من شعبان ، فلم يزد في وقيده قنديل واحد ، على عادة لياليه في سائر السنة ، ولله الحمد والمنة ، وفرح أهل العلم بذلك ، وأهل الديانة ، وشكروا الله تعالى على تبطيل هذه البدعة الشنعاء ، التي كان يتولد بسببها شرور كثيرة بالبلد ، والاستئجار بالجامع الأموي ، وكان ذلك بمرسوم السلطان الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون خلَّد الله ملكه ، وشيَّد أركانه ، وكان الساعي لذلك بالديار المصرية الأمير حسام الدين أبو بكر بن النجيبي بيَّض الله وجهه ، وقد كان مقيماً في هذا الحين بالديار المصرية ، وقد كنت رأيت عنده فتيا عليها خط الشيخ تقي الدين بن تيمية ، والشيخ كمال الدين بن الزملكاني وغيرهما في إبطال هذه البدعة ، فأنفذ الله ذلك ، ولله الحمد والمِنَّة » .

ـ وقال في « البداية والنهاية » (١٦/ ٣١٣) : في أحداث سنة ٧٤٣هـ : « وفي يوم الجمعة ١٦ صفر قبل العصر ورد البريد من الديار المصرية بطلب قاضي القضاة تقي الدين السبكي[1] إليها حاكماً بها ، فذهب الناس للسلام عليه وتوديعه ، وذلك بعدما أرجف الناس به كثيراً ، واشتهر أنه سينعقد له مجلس للدعوى عليه بما دفعه من مال الأيتام . . وكُتبت فتوى عليه بذلك في ترغيمه ، وداروا على المفتين ، فلم يكتب لهم أحد فيها غير القاضي جلال الدين بن حسام الدين الحنفي ، ورأيت خطه عليها وحده بعد الصلاة ، وسئلت في الإفتاء عليها ، فامتنعت لما فيها من التشويش على الحكام » .

● **مواقف علمية** : صائبة وجريئة تدل على أن ابن كثير ليس بجمَّاع ولا حاطب ليل ، بل شخصيته حاضرة وشاهدة ، وعقله المتيقظ جلياً من خلال المواقف التالية :

ـ **دفاعه عن الطبري** : قال في « البداية والنهاية » (١٢/ ٥٩) : « وقد كانت وفاته ـ أبو جعفر الطبري ـ وقت المغرب عشية يوم الأحد ليومين بقيا من شوال من سنة ٣١٠هـ . وقد جاوز الثمانين بخمس سنين أو ست سنين ، وفي شعر رأسه ولحيته سواد كثير ، ودُفن في داره ؛ لأن بعض عوام

---

(١) علماً بأنه كان بين ابن كثير وتقي الدين السبكي خصومة فكرية ، وأبى أبو الفداء أن ينتقم لنفسه ، وأصرَّ على الإنصاف والتريث حتى يظهر وجه الحق .

الحنابلة ورعاعهم منعوا من دفنه نهاراً ، ونسبوه إلى الرفض ، ومن الجهلة من رماه بالإلحاد ، وحاشاه من ذلك كله ، بل كان أحد أئمة الإسلام علماً وعملاً بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وإنما تقلَّدوا ذلك عن أبي بكر محمد بن داود الفقيه الظاهري ، حيث كان يتكلم فيه ويرميه بالعظائم والرفض . ولما توفي اجتمع الناس من سائر أقطار بغداد ، وصلُّوا عليه بداره ، ودُفن فيها ، ومكث الناس يتردّدون إلى قبره شهوراً يُصلُّون عليه ، وقد رأيت له كتاباً جمع فيه أحاديث « غدير خم » في مجلدين ضخمين ، وكتاباً جمع فيه طريق « الطير »[1] .

ـ نقده لابن خلكان : وقال ابن كثير في ذكر حوادث سنة ٢٩٨هـ ترجمة ابن الراوندي ، فقال : « أحد مشاهير الزنادقة ، كان أبوه يهودياً فأظهر الإسلام ، ويقال إنه حرَّف القرآن ، كما عارض ابنه القرآن بالقرآن وألحدَ فيه ، وصنف كتاباً في الردِّ على القرآن سمَّاه « الدامغ » وكتاباً في الردِّ على الشريعة والاعتراض عليها سمَّاه « الزمردة » وكتاباً يُقال له « التاج » في معنى ذلك . . » .

ثم قال : « وقد ذكره ابن خلكان في « الوفيات » وقلس عليه ، ولم يخرجه بشيء ، ولا كأن الكلب أكل له عجيناً ، على عادته في العلماء والشعراء ، فالشعراء يطيل تراجمهم ، والعلماء يذكر لهم ترجمة يسيرة ، والزنادقة يترك ذكر زندقتهم . وأرَّخ ابن خلكان تاريخ وفاته في سنة ٢٤٥هـ ، وقد وهم وهماً فاحشاً ، والصحيح أنه توفي في هذه السنة ، كما أرَّخه ابن الجوزي وغيره » .

ـ نقده للخطيب البغدادي : قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في « البداية والنهاية » (١٠/ ٣٣٥) : قال الخطيب في بناء أبي جعفر المنصور لمدينة بغداد : « وبناها مدوَّرة ، ولا يعرف في أقطار الأرض مدينة مدوَّرة سواها ، ووضع أساسها في وقت اختاره له « نوبخت » المُنجِّم . ثم ذكر عن بعض المنجِّمين قال : قال لي المنصور لما فرغ من بناء بغداد : خذ الطَّالع لها ، فنظرتْ في طالعها ـ وكان المشتري في القوس ـ فأخبرته بما تدلُّ عليه النجوم ، من طول زمانها ، وكثرة عمارتها ، وانصباب الدنيا إليها ، وفقر الناس إلى ما فيها . قال : ثم قلتُ له : وأُبشّرك يا أمير المؤمنين أنه لا يموتُ فيها أحدٌ من الخلفاء أبداً . قال : فرأيته يبتسم ، ثم قال : الحمدُ لله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وذكر عن بعض الشعراء أنه قال في ذلك شعراً ، منه :

قضى ربُّها أن لا يموت خليفةٌ ... بها إنه ما شاء في خلقه يقضي

وقد قرَّره على هذا الخطأ الخطيب ، وسلم ذلك ولم ينقضه بشيء ، بل قرَّره مع اطلاعه ومعرفته !! » .

● قراءة صحيح البخاري ومسلم : في ستة مدارس ، وفي دور بعض الأمراء ، وفي أماكن

---

(١) أبو جعفر الطبري اثنان ، الأول هو الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ، والثاني من الروافض واسمه أيضاً محمد بن جرير بن رستم ، ألف كتباً كثيرة في ضلالتهم انظر سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٦٧) و(١٤/ ٢٨٢) .

متعددة من دمشق الفيحاء ، ولنسمعه يؤرخ لذلك في تاريخه (١٦/٤٥٧) في حوادث سنة ٧٦٦هـ :

« وخُتم « البخاري » بالجامع الأموي وغيره في عدة أماكن ، من ذلك ستة مواعيد ، تقرأ على الشيخ عماد الدين بن كثير في اليوم ، أولها بمسجد هشام بكرة قبل طلوع الشمس ثم تحت النسر ، ثم بالمدرسة النورية ، وبعد الظهر بجامع تنكز ، ثم بالمدرسة العزية ، ثم بالكوشك لأم الزوجة الست أسماء بنت الوزير ابن السَّلْعوس إلى أذان العصر ، ثم من بعد العصر بدار ملك الأمراء أمير علي بمحلَّة القصَّاعين إلى قريب الغروب ، ويقرأ « صحيح مسلم » بمحراب الحنابلة داخل باب الزيارة بعد قبة النسر ، وقبل النورية ، والله المسؤول ، وهو المعين الميسِّر المسهِّل . وقد قرىء في هذه الهيئة في عدة أماكن أخر من دور الأمراء وغيرهم ، ولم يُعهد مثل هذا في السنين الماضية ، فلله الحمد والمِنَّة » .

● **موقفه من الإسرائيليات** : اهتم أبو الفداء رحمه الله للإسرائيليات ، ونبه على منهجه حيالها في أول تفسيره وفي أول تاريخه ، وتتبع روايات الحديث النبوي « بلِّغوا عني ولو آية ، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليَّ متعمِّداً فليتبَّوأ مقعده من النار » ، فقسَّم[1] الأخبار عن بني إسرائيل إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ الإسرائيليات التي يصدقها الكتاب والسنة ويشهدا لها ؛ ولا حاجة إليها « استغناء بما عندنا » .

٢ ـ الإسرائيليات التي لا يصدقها الكتاب والسنة ، ولا يشهدا لها ؛ « فذاك مردود ، لا تجوز حكايته إلا على سبيل الإنكار والإبطال » .

٣ ـ الإسرائيليات التي لا يُصدِّقها الكتاب والسنة ، ولا يكذبها ، تجوز روايتها للاعتبار ، لأن من فائدة هذا القسم « بسطٌ لمختصر عندنا ، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا ، مما لا فائدة في تعيينه لنا ، فنذكره على سبيل التحلِّي به لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه ، وإنما الاعتماد والاستناد على الكتاب وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ما صحَّ نقله أو حسن ، وما كان في ضعف بيِّنته » .

ونحن نتمنى أن يكون ابن كثير قد التزم هذا المنهج في أول كتابه « البداية والنهاية » وبخاصة في قسم بدء الخلق وقصص الأنبياء ، إذ لو فعل لأراح واستراح من كثير من الإسرائيليات المتهافتة التي لا تخرج عن القسم الثاني مما يجب رده وإنكاره وإبطاله ، والذي لا مبرر لتسطيره إلا داعي الجمع والنقل .

---

(١) انظر الإمام ابن كثير ، للندوي (ص : ٣١٥ ـ ٣١٦) .

• **نظم الشعر** : لا ريب أن ابن كثير غلب على أسلوبه أنه مفسر محدِّث فقيه ، لا شاعر ولا أديب ، ومن المحتمل أنه كان مقلاً جداً من قول الشعر ، لأنه يعتبر صناعة الشعر عملاً يستوجب الاستغفار والتوبة ، فقد روى قصيدة لوالده مطلعها :

نأى النومُ عن جفني فبتُّ مسهَّداً ... أخا كَلَفٍ ، حِلْفَ الصبابة مُوجَدا
سميرَ الثريا والنجوم ، مُدَلَّهاً ... فمن ولهي خِلْتُ الكواكب رُكَّدا

ثم قال بعدها : « وعدتها ثلاثة وعشرون بيتاً ، والله يغفر له ما صنع من الشعر » ، ومما يؤكد ذلك ما كتبه المترجمون لحياته :

قال ابن حجر في « الإنباء » (١/ ٤٦) : « وينظم نظماً وسطاً » وتبعه في ذلك ابن العماد في « الشذرات » (٨/ ٣٩٧) .

ومما نقل عنه من شعر الحكمة :

تمرُّ بنا الأيام تترى وإنما ... نساق إلى الآجال والعين تنظر
فلا عائدٌ ذاك الشبابُ الذي مضى ... ولا زائلٌ هذا المشيب المُكدَّر

ولاحظ ابن حجر في « الإنباء » (١/ ٤٧) : على البيت الثاني ، أنه لو قال : صَفو الشباب ، لكان أمتع » .

كما نظم قصيدة في « البداية والنهاية » (١٣/ ٢١٠) أتمَّ فيها ذكر الخلفاء العباسيين بعد المستعصم بالله ، وهي ضرب من الرجز ، ومنها :

ثمَّ ابتلاه الله بالتتار ... أتباع جنكيز خان الجبَّار
صحبته ابن ابنه هولاكو ... فلم يكن من أمره فكاك
فمزَّقوا جنوده وشملَه ... وقتلوه نفسهُ وأهله
ودمَّروا بغداد والبلادا ... وقتلوا الأحفادَ والأجدادا

وأجاز لأحدهم فقال :

أجزتهمُ ما قد سُئلتُ بشرطه ... وكاتبُه إسماعيلُ بن كثير

وحكم بفكر العالم الفقيه ، لا بحسِّ الأديب الأريب ، على قصيدة أبي العباس الناشي (٨٨) بيتاً ، بأنها قصيدة بليغة مع أنها منظومة علمية لا تحرك عاطفة ولا تمس شعوراً ، أورد فيها ناظمها النسب النبوي الشريف بكلام موزون ، ليكون هذا مساعداً على الحفظ والتذكر[1] .

---

(١) الفصول (ص : ٢٢ و ٨٨) .

• **أقوال العلماء فيه** : ومما يؤكد المكانة العلمية السامقة التي بلغها ابن كثير بالجد والمثابرة أقوال شيوخه وتلاميذه ومعاصريه ، ومنهم :

ـ فهذا الذهبي ـ أحد شيوخه كما تقدم يقول في « تذكرة الحفاظ » (٤/ ٥٠٨) : « وسمعت مع الفقيه المفتي المحدِّث ذي الفضائل عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الشافعي ، ولد بعد السبعمئة أو فيها ، وسمع من ابن الشحنة ، وابن الزرَّاد ، وطائفة ، وله عناية بالرجال والمتون ، والتفقه ، خرَّج وألف ، وصنَّف وفسَّر ، وتقدَّم » .

ويقول في « المعجم المختص » وهو معجم خاص بالطلبة : « الإمام الفقيه المحدث الأوحد البارع عماد الدين . . . يدري الفقه ويفهم العربية والأصول ، ويحفظ جملة صالحة من المتون والتفسير والرجال وأحوالهم ، سمع مني ، وله حفظ ومعرفة[١] » .

ـ وهذا معاصره الحسيني يقول في ذيل تذكرة الحفاظ (ص : ٥٨) : « الشيخ الإمام العالم ، الحافظ المفيد البارع . . أفتى ودرَّس وناظر ، وبرع في الفقه والتفسير والنحو ، وأمعن النظر في الرجال والعلل » .

ـ أما تلميذه ابن حجي فيقول كما في « الدارس » للنعيمي (١/ ٣٦) و « طبقات المفسرين » للداودي (١/ ١١١) : « كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث ، وأعرفهم بتخريجها ورجالها وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك ، وكان يستحضر شيئاً كثيراً من الفقه والتاريخ ، قليل النسيان ، وكان فقيهاً جيد الفهم صحيح الذهن ، ويحفظ « التنبيه » إلى آخر وقت ، ويُشارك في العربية مشاركة جيدة ، وينظم الشعر ، وما أعرف أني اجتمعت به ـ على كثرة ترددي إليه ـ إلا واستفدت منه » .

وأما تلميذه الآخر العلامة تقي الدين المقريزي فيقول فيه : « الحافظ الفقيه العلامة ، شيخنا ذو الفنون . . . برع في فنون بملازمة شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية وصنّف التصانيف المفيدة . . . وكان حافظاً متقناً حسن الأخلاق ، جميل المعاشرة ، متواضعاً ، كثير الاستحضار . . . ولم يخلف بعده مثله »[٢] .

ـ وأما ابن حجر العسقلاني ، فيقول في الدرر الكامنة (١/ ٤٠٠): « وكان كثير الاستحضار ،

---

(١) المعجم المختص ٧٤ ـ ٧٥ . ونقل ابن قاض شهبة وابن حجر عن « المعجم المختص » للذهبي أنه قال فيه : « فقيه متفنن ، ومحدث متقن ، ومفسر نقاد ـ في المطبوع وفي طبقات ابن قاضي شهبة (ص : ٤٧٤) والدرر الكامنة (١/ ٣٧٤) : « نقال » ، وهو تحريف واضح ، وخطأ فادح ـ وله تصانيف مفيدة » ولم نجد ذلك في معجمه . الضوء اللامع (٤/ ٥٩) .
(٢) درر العقود (١/ ٤٠٠ ـ ٤٠١) .

حسن المفاكهة ، سارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته ، ولم يكن على طريقة المحدِّثين ، في تحصيل العوالي ، وتمييز العالي من النازل ، ونحو ذلك من فنونهم ، وإنما هو من محدِّثي الفقهاء ، وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح ، وله فيه فوائد . . . » .

ويرد السيوطي على ابن حجر في هذا الكلام الذي انتقص فيه من مكانة ابن كثير كمحدث ، فيقول في ذيله على التذكرة (ص : ٢٦١) : « العمدة في علم التفسير معرفة صحيح الحديث وسقيمه ، وعلله ، واختلاف طرقه ورجاله جرحاً وتعديلاً ، وأما العالي والنازل ونحو ذلك ، فهو من الفضلات ، لا من الأصول المهمة » .

ب ـ مكانته الاجتماعية :

• **صلته بنائب السلطنة :** وهو مؤهَّل لهذه الصلة ، فمنصب الإفتاء ، والتدريس ، والتأليف التاريخي ، تمنحه المكانة الاجتماعية المرموقة والمحترمة ، فيُدعى إلى مجالس العلم والتحكيم ، والفصل في القضايا العلمية الدقيقة ، ولحضور المصالحات العامة ، والصلة المباشرة مع الحكام الذين تولوا نيابة السلطان في دمشق ، فقد ورد في البداية والنهاية (١٦/ ٤٢٧) خلال حوادث سنة ٧٦٣هـ : « وفي ثاني المحرم قدم نائب السلطنة ـ علاء الدين المارداني ـ بعد غيبة نحو من خمسة عشر يوماً ، وقد أوطأ بلاد فرير بالرعب ، وأخذ من مقدميهم طائفة فأودعهم الحبس ، وكان قد اشتهر أنه قصد العشيرات المواسين ببلاد عجلون ، فسألته عن ذلك حين سلَّمت عليه ، فأخبرني أنه لم يتعد ناحية فرير ، وأن العشيرات قد اصطلحوا واتفقوا ، وأن التجريدة عندهم هناك » .

وتقدَّم أنه كتب سيرة لنائب السلطان على دمشق منكلي بغا المتوفى سنة ٧٧٠هـ ، وأنه كان يُكرم ابن كثير ويقرِّبه .

كما تقدَّم أنه كتب رسالة في الجهاد للأمير منجك حين تولَّى السلطنة مرة ثانية (٧٧١ ـ ٧٧٥هـ) .

• **حضور مجالس كبار العلماء :** ومن يتابع حوادث السنوات بدءاً من سنة ٧٣٠هـ يجد أن ابن كثير كان يحضر مجالس العلماء ، ويشارك في الحياة العامة ، وبخاصة قضايا التحكيم والاختلاف ، ويشهد لذلك ما قاله في البداية والنهاية (١٦/ ٤٥١) في حوادث سنة ٧٦٥هـ : « وفي الرابع عشر من جمادى الآخرة عُقد بدار السعادة مجلس حافل ، اجتمع فيه القضاة الأربعة ، وجماعة من المفتين ، وطُلبتُ فحضرت معهم ، بسبب المدرسة التدمرية ، وقربة الواقف ، ودعواهم أنه وقف عليهم الثلث ، فوقف الحنبلي في أمرهم ، ودافعهم عن ذلك أشدَّ الدفاع . . » .

وقال في « البداية والنهاية » (١٦/ ٤٦٢) في حوادث سنة ٧٦٧هـ : « ولما كان يوم الإثنين ، الرابع والعشرين من ربيع الأول ، عقد مجلس حافل بدار السعادة ، بسبب ما رمي به قاضي القضاة تاج الدين الشافعي ابن قاضي القضاة السبكي ، وكنت ممن طُلب إليه ، فحضرته فيمن حضر ، وقد

اجتمع فيه القضاة الثلاثة ، وخلق من المذاهب الأربعة ، وآخرون من غيره بحضرة نائب الشام سيف الدين مُنْكلي . . وكان قد كتب فيه محضران متعاكسان ، أحدهما له ، والآخر عليه . . »
واستمر التداول إلى الشهر التالي ، وحضره ابن كثير ، وانتهى بالصلح استجابة لقوله تعالى : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ [المائدة : ٩٥] .

▫ **اجتماعه بالخليفة المعتضد** : قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٦/ ٣٦٧) في حوادث سنة ٧٥٣هـ : « وفي يوم السبت عاشر شهر شعبان اجتمعنا بالخليفة المعتضد بالله أبي الفتح بن أبي بكر المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد . وسلَّمنا عليه وهو نازل بالمدرسة الدماغية ، داخل باب الفرج ، وقرأت عنده جزءاً فيه ما رواه أحمد بن حنبل عن محمد بن إدريس الشافعي في مسنده ، وذلك عن الشيخ عز الدين بن الضياء الحموي ، بسماعه من ابن البخاري ، وزينب بنت مكي عن أحمد بن الحصين عن ابن المذهب ، عن أبي بكر بن مالك ، عن عبد الله بن أحمد ، عن أبيه ، فذكرهما .

والمقصود أنه شابٌ حسن الشكل ، مليح الكلام ، متواضع ، جيِّد الفهم ، حلو العبارة ، رحم الله سلفه » .

▫ **إنكاره على الأمر السلطاني بمسك النصارى من الشام** : وأن يأخذ نائب السلطان منهم ربع أموالهم ؛ لعمارة ما خرب من الإسكندرية ، ولعمارة مراكب تغزو الفرنج ، فأهانوا النصارى ، وطُلبوا من بيوتهم بعنف ، وخافوا أن يقتلوا ، ولم يفهموا ما يُراد بهم ، فهربوا كل مهرب .

يتابع ابن كثير ، وهو يؤرخ لهذه الحادثة في « البداية والنهاية » (١٦/ ٤٦٠) في سنة ٧٦٧هـ : « وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من شهر صفر إلى الميدان الأخضر للاجتماع بنائب السلطنة ـ الأمير سيف الدين منكلي بغا ـ وكان اجتماعنا بعد العصر يومئذ بعد الفراغ من لعب الكرة ، فرأيت منه أنساً كثيراً ، ورأيته كامل الرأي والفهم ، حسن العبارة ، كريم المجالسة ، فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده في النصارى ، فقال : إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك ، فقلت له : هذا مما لا يسوغ شرعاً ، ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا ، ومتى كانوا باقين على الذمة يؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذلة والصغار ، وأحكام الله قائمة ، لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد الفرد فوق ما يبذلونه من الجزية . . » .

وما زال يعرض الأدلة ، ويقترح الحل الأنسب بغزو قبرص ، حتى أقنع نائب السلطنة ، وكتب إلى مصر بذلك ، فجاء الجواب موافقاً لما اقترحه وارتآه .

▫ **حضوره إعدام الزنديق عثمان الدَّكَّالي**[1] : قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٦/ ٢٩٤)

(١) منسوب إلى دكَّالة ، بلد بالمغرب .

في أحداث سنة ٧٤١هـ : « وفي يوم الثلاثاء سلخ شهر شوال عقد مجلس في دار العدل بدار السعادة ، وحضرته يومئذ ، واجتمع القضاة والأعيان على العادة ، وأُحضر يومئذ عثمان الدَّكَّالي ـ قبحه الله تعالى ـ وادُّعِي عليه بعظائم من القول لم يُؤثر مثلها عن الحلَّاج ، ولا عن ابن أبي العَزَاقِر[1] الشَّلْمَغانيّ[2] ، وقامت عليه البينة بدعوى الإلهية ـ لعنه الله ـ وأشياء أخر من التنقيص بالأنبياء ، ومخالطة أرباب الريب من الباجريقية[3] وغيرهم من الاتحادية ـ عليهم لعائن الله ـ . . فسئل القاضي المالكي الحكم عليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلَّى على رسوله ، ثم حكم بإراقة دمه وإن تاب ، فأُخذ المذكور وضُربت عنقه بسوق الخيل ، ونودي عليه : هذا جزاء من يكون على مذهب الاتحادية ، وكان يوماً مشهوداً بدار السعادة ، حضر خلق من الأعيان والمشايخ ، وحضر شيخنا جمال الدين المزي الحافظ ، وشيخنا شمس الدين الذهبي ، وتكلَّما وحرَّضا في القضية جداً ، وشُهد بزندقة المذكور بالاستفاضة ، وكذا الشيخ زين الدين أخو الشيخ تقي الدين بن تيمية ، وخرج القضاة الثلاثة : المالكي والحنفي والحنبلي ، وهم نفذوا حكمه في المجلس ، فحضروا قتل المذكور . وكنت مباشراً لجميع ذلك من أوله إلى آخره » .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

---

(١) قيده ياقوت في معجم البلدان (٣/ ٣٥٨) فقال : بفتح العين المهملة والزاي وبعد الألف قاف مكسورة ثم راء مهملة .

(٢) منسوب إلى شلمغان ، من نواحي واسط ، كما في معجم البلدان .

(٣) نسبة إلى الباجريقي محمد بن جمال الدين من الحلولية توفي سنة (٧٢٤) كما في البداية .

ثامناً : وفاته

وأخيراً انتهت رحلة هذا الشيخ الجليل ، وختمت حياته المثمرة وأيامه المليئة بجليل الأعمال ، وصالح الأفعال والأقوال . وكان قد أُضِرَّ في أواخر عمره ، فأقعده فقد البصر عن استكمال كتابه الكبير « جامع المسانيد » كما صرَّح بذلك لأحد تلاميذه ، وهو ابن الجزري ، فقال : « لا زلتُ أكتبُ فيه في الليل ، والسراج ينوصُ ، حتى ذهب بصري معه » . وهناك من يُقدِّر تاريخ ذلك في السنة الأخيرة من حياته ، أي : سنة ٧٧٤هـ .

واتفق المؤرخون على أنه توفي بدمشق في شهر شعبان من سنة ٧٧٤هـ . وحدَّد ابن حجر يوم الوفاة بخامس عشر شعبان ، وخالفه ابن تغري بردي فحدَّد ذلك في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان . وهو تحريف صوابه : سادس عشر شعبان[١] ، كما نص عليه تلميذه المقريزي[٢] وإنما الاختلاف في تحديد بداية الشهر .

وشيَّعت دمشق عالمها ومؤرِّخَها في جنازة حافلة مهيبة ، ودُفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية ، بمقبرة الصوفية[٣] ، خارج باب النصر من دمشق .

ورثاه أحدُ تلاميذه ، وهو الشيخ محمد بن بهادر الزركشي ، كما تقدَّم ، فقال :

لفقدكَ طلابُ العلوم تأسَّفوا ... وجاؤوا بدمعٍ لا يبيدُ كثير

ولو مَزَجُوا ماء المدامعِ بالدِّما ... لكانَ قليلاً فيكَ يا ابنَ كثير

رحم الله الحافظ ابن كثير رحمةً واسعةً ، وجعل مثواه جنَّات النعيم ، وجمعنا به تحت لواء سيد المرسلين محمد بن عبد الله صلَّى الله عليه وآله وسلم .



---

(١) بعد الرجوع إلى كتاب « التوفيقات الإلهامية » تبين أن يوم الخميس من شعبان هو السادس عشر وهو ما أكده المقريزي رحمه الله تعالى .

(٢) درر العقود (١/ ٤٠١) .

(٣) مقبرة الصوفية : اندرست هذه المقبرة ، ولم يبق منها إلا ثلاثة قبور تقع في الجهة الجنوبية الشرقية من حديقة إدارة جامعة دمشق (المستشفى الوطني سابقاً) .

(٣)

دراسة الكتاب

البداية والنهاية

تمهيد :

أولًا ـ المحتوى

١ ـ المبتدأ وقصص الأنبياء .

٢ ـ السيرة النبوية .

٣ ـ تايخ الإسلام :

أ ـ الخلافة الراشدة والدولة الأموية .

ب ـ الخلافة العباسية .

ج ـ دولة المماليك البحرية .

٤ ـ النهاية (ذكر الآخرة ، وأحوالها ، وعلامات الساعة ، ومظاهرها) .

ثانياً : منهج الكتاب .

ثالثاً : الأسلوب .

رابعاً : الموارد والمصادر .

خامساً : طبعات البداية والنهاية .

(٣)

دراسة الكتاب

البداية والنهاية

أولًا : المحتوى :

تمهيد :

« البداية والنهاية » كتاب تاريخيّ ، عالمي وإسلامي ، يؤرخ لمبدأ الخلق ، وللأنبياء والرسل ، وللسيرة النبوية ، وحوادث الحياة الإسلامية إلى عام ٧٧٤هـ ووصل منه إلينا إلى سنة ٦٦٨هـ ، وخاتمته ذكرُ الساعة وعلاماتها ، وأحوال الآخرة وأهوالها .

وهذه العالمية والشمولية في التاريخ الإسلامي إنما نزل بها القرآن الكريم ، ووجَّهت إليها السنة النبوية ، ممثلة في وحدة النبوات وتنزل الرسالات بالدين الحق ، وهو الاستسلام والانقياد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران : ١٩] .

كما أنَّ القرآن عرض لمصير العرب العاربة الذين أشركوا بالله تعالى ، وأكثروا في الأرض الفساد ، فعاقبهم الله في الدنيا قبل الآخرة ، وجعل مصيرهم وبلادهم عبرة لأولي البصائر والألباب .

وأشار القرآن الكريم ، إلى حروب الفرس والروم ، وعرّف بالحياة العربية وما فيها من شرك وجاهلية ، وسجَّل حوادث السيرة النبوية ، ووصف بدقة متناهية المواقف النبوية بمشاعرها الصادقة وعواطفها الدافقة .

وإذا كان لا بد لكل أمة من تاريخ تعتز به وتفتخر ، وتأخذ من خلاله الدروس والعبر ، والقدوة الحسنة ؛ فإن القرآن الكريم رسم للأمة المسلمة معالم تاريخ إنساني كامل وشامل .

وعلم التاريخ بهذا المعنى القرآني فن إسلامي ، لا يقوم على الانتقائية ، والتفسير المادي والفلسفة البشرية ، وإنما يؤرخ للحوادث والوقائع الحقيقية ويعرضها بحياد تام وإنصاف كامل ، ويُعرِّف بالأولياء الصالحين ، والعلماء العاملين ، والحكّام والسلاطين ، وتختلط فيه علوم التفسير والحديث والفقه والاجتماع والأخلاق ، والدين والدنيا والآخرة .

ولذلك يقول الدكتور شاكر مصطفى : « إن التاريخ ـ في اعتقادي ـ علم عربي إسلامي ، أو يمكن اعتباره كذلك »[1] .

ومن قبلُ نقل السخاوي عن إبراهيم بن أبي الدم الحموي قوله : « إنما الفائدة في التاريخ الإسلامي ـ مع قربه من الصحة ـ ذكره لعلماء الأمة المحمدية ، وذكر محاسنهم وعلومهم ، ومواعظهم ، وحكمهم ، وسيرهم التي يستدل العامل بها في أموره ، ويتدبرها ويتفكر فيها ، فينتفع بما قالوه ، وما ينقل عنهم من المحاسن دنيا وأخرى »[2] .

وقد اهتم العلماء بهذا العلم ، ورووا الأخبار رواية شفوية ، ثم جاء التدوين للتاريخ من منتصف القرن الثاني الهجري ، كما يؤرخ لذلك الإمام الذهبي فيقول : « في سنة ثلاث وأربعين ومئة شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير . . وكثر تدوين العلم وتبويبه ، ودوِّنت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس ، وقبلَ هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم ، أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة »[3] .

وسبق ابن كثير في هذا المضمار التاريخي الإمام الطبري وابن الجوزي وابن الأثير ، وكلهم كتب تاريخاً إسلامياً جمع بين التفسير والتاريخ ، أو بين الحديث والتاريخ ، أو بين الفقه والتاريخ ، وتميز تاريخ ابن كثير في « البداية والنهاية » بالجمع بين التفسير والحديث والفقه والتاريخ .

وحياة ابن كثير في دمشق ، هيأته لكتابة التاريخ ، وحفزته لهذا الإنجاز العظيم تأسياً بشيخيْه المؤرخين : الذهبي والبِرْزَاني ، كما أن عصره الذي عاش فيه ، وهو عصر المماليك[4] تميز بالاهتمام بالتاريخ والتأليف فيه ، يقول الأستاذ محمود رزق سليم : « التاريخ في مقدمة الفنون التي سعدت بالعناية ، ورزقت الرعاية في هذا العصر ، فقد تضافرت الجهود ، وتضاعفت الهمم ، وتنافست العقول والأيدي على إخراج كتب تاريخية حافلة »[5] .

ولا ريب أن للسيرة النبوية أثراً عظيماً في نشأة علم التاريخ الإسلامي وتطوره في اتباع أسلوب المحدثين في جمع الروايات والأخبار[6] ، ولا ريب أيضاً أن ابن كثير كتب السيرة أولاً ، مما حمله

---

(١) التاريخ والمؤرخون العرب (١/ ٦) .
(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ؛ للسخاوي (ص : ٤١٨) .
(٣) تذكرة الحفاظ (١/ ١٦٠) .
(٤) عصر سلاطين المماليك (٣/ ٩٢) .
(٥) لعل البعد عن المنابع الأولى ولد الاهتمام بالتاريخ في هذا العصر ، وما جرى فيه من انتكاسات وانتصارات ، وانقطاع بين الماضي والحاضر ، والسلف والخلف .
(٦) انظر كتابنا « مناهج التأليف في السيرة النبوية خلال القرون الأربعة الأولى » (ص : ٥٨) طبعة دار الكلم الطيب الأولى .

على كتابة التاريخ ووصل السيرة بمبدأ الخليقة ، ووضعها في مجريات التاريخ الإسلامي العام .

ويبقى الحافظ ابن كثير مؤلِّفاً متفرداً عن غيره من المؤرخين ومتميزاً بهذه الخاتمة التي أنهى بها كتابه ، فكان منطقياً ومنسجماً مع اسم الكتاب حيث كان حقاً تأريخاً لبداية البشرية ، وتأريخاً لنهايتها في آن واحد ومؤلَّف واحد .

١ ـ المبتدأ وقصص الأنبياء :

ظهرت شخصية ابن كثير العلمية المتكاملة في هذا القسم من البداية والنهاية ، وهو متبع غير مبتدع في هذه البداءة للعلماء المصنفين قبله ؛ حيث يبدأون بالتأريخ لخلق الكون والسماوات والأرض ، ثم ينتقلون لخلق آدم ومن جاء بعده من الرسل .

ومن المؤكد أن تصنيفه لكتابه « تفسير القرآن العظيم » ، وإحالاته المتكررة له جعل الطريق ممهَّداً إلى كتابة « المبتدأ وقصص الأنبياء » ، كما جلَّى أبوابه وفصوله ، ومعالمه الثقافية ، ومستنداته الشرعية ؛ متضافرة ومتكاملة .

فبدأ بقوله الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر : ٦٢] .

وبقوله سبحانه : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الفرقان : ٥٩] .

يُفسِّر القرآن بالقرآن ، وبالأحاديث المأثورة ، وبأقوال الصحابة ، ويُحرِّم التفسير بالرأي المحض ، ويصدر عن أشهر كتب التفسير المتقدمة والمطوَّلة بتأويلات موثَّقة وناضجة ، ويَرِدُ دواوين المحدِّثين ، ويدرس الأسانيد ، ويُميِّز الصحيح والحسن من الأحاديث عن الضعيف والموضوع . ويكشف عن الإسرائيليات ، ويقسمها إلى ثلاثة أقسام : ما يوافق الكتاب والسنة ؛ فلا حاجة له ، وما يُعارض الكتاب والسنة فهو مردود ، وما لا يُصدقه الكتاب والسنة ولا يكذبه فتجوز روايته للاعتبار . ويتوقف ملياً مع كل حكم فقهي ، حتى ينسى في بعض الأحيان أنه مؤرخ لا فقيه . وهو في كل ذلك حاضر بذهنه الوقّاد ، وثقافته الشاملة ، ينقد ويردُّ ويُرجح وينتقي ، ويُقارن الثابت في القرآن الكريم مع ما ورد في الكتب السماوية ، ويوضح ما طرأ على هذه الكتب من تغيير وتبديل ، ويستهجن من أهل الكتاب العصبية للباطل ، والتمسُّك به مع ظهور فساده وضلاله .

ويُلخِّص الحافظ ابن كثير هذا القسم في مقدمة « البداية والنهاية »[1] فيقول : « فهذا كتابٌ أذكر فيه ـ بعون الله وحسن توفيقه ـ ما يسَّره الله تعالى بحوله وقوته من مبدأ المخلوقات : من خلق العرش والكرسي ، والسماوات والأرض وما فيهنَّ ، وما بينهنَّ من الملائكة والجانّ والشياطين ، وكيفية

---

(١) انظر البداية والنهاية (٢/ ١٣٢ ـ ١٣٤) .

خلق آدم عليه السلام ، وقصص النبيين ، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية ، حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبيِّنا محمد ﷺ . . »[1] .

● وفي طبعتنا الجديدة جاء هذا القسم موزعاً على جزأين كما يلي :

١ ـ القسم الأول (المبتدأ وقصص الأنبياء	
الجزء	المحتوى
الجزء الأول (١)	مبدأ الخلق ـ الله خالق كل شيء ـ صفة خلق العرش والكرسي ـ اللوح المحفوظ ـ خلق السماوات والأرض ـ خلق الملائكة ـ خلق الجان وقصة الشيطان ـ خلق آدم . قصة إدريس ـ نوح ـ هود ـ صالح ـ إبراهيم ـ إسماعيل ـ إسحاق ـ إسرائيل ـ يوسف ـ أيوب ـ ذي الكفل ـ أصحاب الرس ـ قوم يس ـ يونس .
الجزء الثاني (٢)	قصة موسى ـ يوشع ـ الخضر وإلياس ـ حزقيل ـ اليسع ـ شمويل ـ داود ـ سليمان ـ زكريا ويحيى ـ عيسى أخبار الماضين : ذي القرنين ـ يأجوج ومأجوج ذكر أخبار العرب : قصة سبأ ـ قصة ربيعة .

٢ ـ السيرة النبوية :

وفي هذا القسم الثاني من « البداية والنهاية » يشتد ساعد ابن كثير ، ويسيل مداد قلمه ، فيكتب وكأنه يغرف من بحر . وهو اختصاصي في السيرة ، كتبها مبسوطة[2] ومختصرة ، وموارد السيرة عنده : القرآن أولاً ، والسُّنة ثانياً ، وكتب السيرة والمغازي ثالثاً ، وكتب الدلائل والشمائل رابعاً .

وحضور شخصية المفسر الألمعي في جميع أبواب السيرة وفصولها ، لا يقل عنه حضور شخصية المحدث الصيرفي وهو يوازن بين الروايات ، ويعرض لفنون تطبيقية ، من علوم الحديث متناً وإسناداً ، رواية ودراية .

كما أن وقائع السيرة لا تصرفه عن الاستطرادات الفقهية ، والتأصيل للقواعد الفقهية

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٧) .

(٢) أشار إلى ذلك الحافظ في تفسيره (٣/ ٤٧٨) فقال في قصة غزوة الخندق « وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة الذي أفردناه موجزاً وبسيطاً » .

والأصولية ، والاستدلال والانتصار لمذهبه الشافعي في أدق الأحكام والفروع ، وكأنه يكتب للمختصين في علوم التفسير والفقه والحديث ! وهو مع هذا كله يكتب التاريخ ! .

ومما انفرد به الحافظ ابن كثير في السيرة ؛ أنه أضاف كتابين : هما « الشمائل » و « دلائل النبوة » وكان قد أشار إلى إضافة كتابين آخرين في « الخصائص » و « الفضائل » ولكنه لم يفعل .

وقد كتب في المقدمة : « فنذكر سيرته ـ ﷺ ـ كما ينبغي ، فتشفي الصدور والغليل ، وتزيح الداء عن العليل »[1] .

وقد جاء محتوى هذا القسم موزعاً على أربعة أجزاء ، كما يلي :

٢ ـ القسم الثاني (السيرة النبوية)	
الجزء	**المحتوى**
الجزء الثالث (٣)	الحوادث زمن الفترة : تجديد حفر زمزم ـ نذر عبد المطلب ـ تزويج عبد المطلب ابنه عبد الله من آمنة . السيرة النبوية : المولد السنة الأولى من الهجرة ـ نهاية سرية عبيدة بن الحارث
الجزء الرابع (٤)	بداية السنة الثانية من الهجرة كتاب المغازي ـ ذكر ما كان من الأمور الحادثة سنة ٩ للهجرة .
الجزء الخامس (٥)	كتاب الوفود الواردين إلى رسول الله ﷺ ـ حج النبي ﷺ ـ وفاته ـ زوجاته وأولاده ـ إماؤه ـ خدَّامه ـ كتَّاب الوحي ـ آثار النبي ﷺ ـ ذكر أفراسه ومراكبه .
الجزء السادس (٦)	متعلقات السيرة : شمائله ﷺ ـ دلائل نبوَّته .

٣ ـ تاريخ الإسلام :

ويشتمل على :

أ ـ الخلافة الراشدة والدولة الأموية (١١ ـ ١٣٢ هـ) .

ب ـ الخلافة العباسية (١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ) .

---

(١) البداية والنهاية (١/٧) .

ج ـ دولة المماليك (٦٥٦ ـ ٧٦٨ هـ) .

وهذا القسم الثالث من « البداية والنهاية » من أوسع الأقسام زمناً ، وأعظمها حجماً ، وأغزرها مادة ، مليء بالحوادث والحروب الخارجية والداخلية ، والفتن الواقعة على المسلمين .

حفظ للمسلمين تاريخ ثمانية قرون ، وما اشتملت عليه من ثقافات متنوعة من الحديث والأدب والشعر والحكمة ، وخبرات العلماء وتجارب الأمم .

ويستوقفنا القرن الأول الذي جمع الحافظ ابن كثير مادته التاريخية من دواوين المحدثين وكتب التاريخ القديمة التي لم تصل إلينا مطبوعة ، وآراء الحافظ ابن كثير وتعليقاته حاضرة وظاهرة تثري الموضوعات المتنوعة ، وتظهر الحق وتكشف الخطل ، وتحرك العواطف المعبرة عن مواقف أهل السنة والجماعة .

اتبع طريقة الحوليات ، وذكر الحوادث على السنين ، وكل سنة موزعة إلى قسمين ، فيقول أولاً : ثم دخلت سنة كذا ، ويذكر الحوادث والحروب الخارجية والفتن الداخلية ، ثم يقول ثانياً : من توفي فيها من الأعيان .

• ويلاحظ أن نظام الحوليات يقطع الحادثة عند انتهاء السنة ، فلا يعرضها كاملة ومستوفاة في سنة وقوعها ، كما أنه في العصر العباسي زاد اهتمامه بذكر الحوادث الطبيعية من الزلازل والأمراض والأوبئة والمجاعات ، وغلاء الأسعار . ولم يسلم من ذكر الغرائب ، واهتم بأخبار القضاة وتعيينهم وعزلهم منذ أيام السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ) ، وبذكر المدارس وأخبار رؤسائها ومدرسيها منذ عصر الوزير نظام الملك (٤٥٦ ـ ٤٨٥هـ) .

• ويذكر في الوفيات تراجم الأعلام والأعيان من العلماء والمحدثين والشعراء والأدباء والمؤرخين والأمراء والسلاطين والخلفاء ، وكل من له أثر أو شهرة في المجتمع ، وهو بهذا الذكر المطول أو المختصر ينصفهم ويحفظ ذكرهم وآثارهم ، ولكنه من حيث الشكل يقطع التسلسل التاريخي ومجريات الحوادث والوقائع .

• يعتمد المصادر التاريخية التي سبقته أو عاصرته ، ويختصر ، ويصوغ الحوادث بالمعنى ، ويُحيل إلى الأصل والمصدر تخلصاً من الإطالة والإملال ، ويؤرخ عصره عن قرب ومشاهدة ، ويقدم للأجيال بعده صورة صادقة عن القرن الثامن الذي عاش عمره فيه .

وجاء محتوى هذا القسم موزعاً على عشرة أجزاء ، كما يلي :

٣ ـ القسم الثالث (تاريخ الإسلام)	
الجزء	**المحتوى**
الجزء السابع (٧)	سنة إحدى عشرة من الهجرة ـ الخلفاء الراشدون ـ خلافة الحسن بن علي ـ سنة ٤٠ هـ
الجزء الثامن (٨)	خلافة معاوية ـ سنة ٤١ هـ سنة ٦٥ هـ ـ ترجمة مروان بن الحكم
الجزء التاسع (٩)	خلافة عبد الملك بن مروان ـ وفيات سنة ٦٥ هـ وفيات سنة ١٠٠ هـ
الجزء العاشر (١٠)	دخلت سنة ١٠١ هـ . وفيات سنة ٢٠٠ هـ .
الجزء الحادي عشر (١١)	دخلت سنة ٢٠١ هـ وفيات سنة ٣٠٠ هـ .
الجزء الثاني عشر (١٢)	دخلت سنة ٣٠١ هـ وفيات سنة ٤٠٠ هـ .
الجزء الثالث عشر (١٣)	دخلت سنة ٤٠١ هـ وفيات سنة ٥٠٠ هـ .
الجزء الرابع عشر (١٤)	دخلت سنة ٥٠١ هـ وفيات سنة ٦٠٠ هـ .
الجزء الخامس عشر (١٥)	دخلت سنة ٦٠١ هـ وفيات سنة ٧٠٠ هـ .
الجزء السادس عشر (١٦)	دخلت سنة ٧٠١ هـ وفيات سنة ٧٦٨ هـ .

وقد شاع بين بعض الباحثين أنَّ تاريخ ابن كثير ينتهي عند سنة ٧٣٨هـ بسبب إشارة للمؤلف في هذه السنة نصها : « كان فراغي من الانتقاء من تاريخه في يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين وسبعمئة » ، وهي إشارة إلى انتقائه من تاريخ شيخه علم الدين البِرْزالي الذي انتهى إلى هذه السنة ، ذلك أن عمدة ابن كثير في المدة ٦٦٥ ـ ٧٣٨هـ كانت على ما انتقاه من هذا التاريخ الذي ذيّل به مؤلفه على تاريخ أبي شامة وسماه « المقتفي لتاريخ أبي شامة » .

والحق الذي لا مراء فيه أن ابن كثير ظل يكتب الحوادث والوفيات في تاريخه إلى شهر وفاته

شعبان سنة ٧٧٤هـ ، وحينما كف بصره في أخريات أيامه كان يملي على ولده عبد الرحمن ، وأدلة ذلك صريحة ناصعة الدلالة من أبرزها :

١ ـ ظهور ذاتية المؤلف في كثير من الحوادث والتراجم لما بعد سنة ٧٣٨هـ وتصريح المؤلف باسمه .

٢ ـ تصريح العلماء الذين جاؤوا بعده واستفادوا من كتابه بالنقل منه في عشرات المواضع ، لاسيما المقريزي ، وابن حجر ، والسخاوي .

٣ ـ تصريح العلماء الثقات بأن ابن كثير أملى من تاريخه إلى شهر وفاته وهو شعبان من سنة ٧٧٤ ، قال السخاوي في حوادث سنة ٧٧٤ من كتابه « وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام » : « وفي أثناء شعبانها انتهى تاريخ العماد ابن كثير ، وكان من حين ضرره وضَعْفه يملي فيه على ولده عبد الرحمن » ، فهذا نص قاطع لا يحتاج إلى مزيد بيان ، ولا يشك عاقل بأن السخاوي كان قد اطلع على نسخة من « البداية » إلى هذا التاريخ ، بدلالة نقله منه في سنتي ٧٧٣ و٧٧٤هـ ، فضلاً عن نصوص أخرى ذكرها المؤرخون أمثال الحافظ ابن حجر وغيره .

على أنَّ الذي وصل إلينا إلى سنة ٦٦٨هـ ، وقد تلاعب في هذا القسم النساخ والتلاميذ . فأضافوا إليه أشياء من عندهم ، فعسى أن نقف في قابل الأيام على نسخ أكثر دقة وإتقاناً لهذا القسم منه ، لكن المحقق والمراجع بذلا جهداً في تصفيته .

٤ ـ النهاية (ذكر الآخرة وأحوالها . .) :

وفي هذا القسم الأخير من « البداية والنهاية » يجد ابن كثير نفسه من جديد ، وتسعفه صفة الحافظ المحدث الجهبذ في ختم الكتاب بالنهاية ، حيث يسرد أهم أحاديث الفتن والملاحم ، وأشراط الساعة ، ونهاية الدنيا ، وينتقل بعدها إلى استعراض حوادث الآخرة ، من النفخ في الصور مرتين ، مرة لقيام الساعة ومرة للبعث والنشور ، وما يجري في عرصات القيامة من أهوال ، وحساب ، وميزان ، وصحف ، وصراط ، وجنة أو نار .

وما أعظمها من نهاية مكملة للدنيا موفية لها ، اعتقدها الحافظ ابن كثير بكل جوارحه ، ويعتقدها كل مؤمن صادق ، ويشعر ببرد اليقين عندما يتحقق الوعد الحق للمؤمنين الأخيار ، والوعيد الصادق للكفار الأشرار ، ويتنعم الأتقياء الأنقياء في جنة الله الخالدة ، ويتقلب الضالون الخاطئون في نار جهنم خالدين فيها أبداً .

وإذا رجحت شخصية ابن كثير المفسر في مبدأ الخليقة ، فإن شخصية المحدث هي الراجحة والظاهرة في النهاية ، حيث النصوص الحديثية متلاحقة ومتواصلة ، ومع ذلك فإن العلامة ابن كثير لا تغيب عنه النصوص القرآنية ، بل هو يستحضرها ، ويوظفها في المشهد الأخروي المعروض ،

وبخاصة في مشاهد يوم القيامة ، وختامها بالمصير إلى الجنة وصفاتها الربانية المحببة ، أو النار وصفاتها الإلهية المرعبة .

ويشير ابن كثير إلى هذا القسم الأخير في المقدمة فيقول : « ونذكر الفتن والملاحم ، وأشراط الساعة ، ثم البعث والنشور ، وأهوال القيامة ، ثم صفة ذلك ، وما في ذلك اليوم ، وما يقع فيه من الأمور الهائلة ، ثم صفة النار ، ثم صفة الجنان ، وما فيها من الخيرات الحسان ، وغير ذلك وما يتعلَّق به ، وما ورد في ذلك من الكتاب والسنة ، والأخبار المنقولة والمقبولة عند العلماء وورثة الأنبياء الآخذين من مشكاة النبوة المصطفوية المحمدية ، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام »[1] .

وجاء محتوى هذا القسم في الطبعة الجديدة كما يلي :

٤ ـ القسم الرابع (النهاية)	
الجـــزء	المحتـــوى
الجزء السابع عشر (١٧)	الفتن والملاحم ـ أشراط الساعة ـ النفخ في الصور ـ أهوال يوم القيامة ـ صفة الجنة ـ صفة النار .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

(١) البداية والنهاية (١/٨) .

ثانياً : منهج الكتاب :

إن المتتبع لكتاب « البداية والنهاية » ابتداء بمقدمة المؤلف وانتهاء بالخاتمة في الجزء السابع عشر ؛ لا يجد منهجاً واحداً قد التزمه المؤلف ، سوى موضوع واحد هو « الإسرائيليات » . وعذره في عدم تحديد معالم منهجه ضخامة الكتاب ، وتعدد موضوعاته ، وكثرة مصادره ، وامتداد أزمنته وتعاقب قرونه .

ـ ففي القسم الأول (مبدأ الخلق وقصص الأنبياء) كان منهجه جمع الروايات من كتب التفسير والحديث ، واختيار ما يتفق مع ثقافته النقدية العالية في علم مصطلح الحديث وتراجم الرجال ، واستبعاد ما يتعارض مع الكتاب والسنة من الإسرائيليات وغيرها من الأخبار الضعيفة والمتهافتة .

ـ وفي القسم الثاني (السيرة النبوية ، والخلفاء الراشدون) كان منهجه الاعتماد على رواة السيرة الأوائل ، وما سجَّله ابن إسحاق والطبري وغيرهما ، ولكنه بقيت شخصيته في الاختيار والنقد ظاهرة ، يدرس الأسانيد ، ويتكلم على الرواة جرحاً وتعديلاً ، ولا يهمل المتن[1] إذا ظهرت عليه علائم الغرابة والنكارة .

ـ أما القسم الثالث (التاريخ الإسلامي العام) فهو مشتمل على عشرة أجزاء ، ومجموعة كتب ومصادر ، فلا عجب أن نجد تعدداً في المناهج واختلافاً في اللغة ، وتبايناً في الاختصار والتطويل ، والتقديم والتأخير .

وفي القسم الرابع (ذكر الآخرة وأحوالها) يعود حشد الروايات الحديثية ، ونقدها وتمحيصها ، واختيار الصحيح والحسن ، وبيان الضعيف منها ، وتظهر شخصية الحافظ ابن كثير محدثاً أولاً ومفسِّراً ثانياً ، وعالماً مستحضراً للكتب المتقدمة في علوم التفسير والحديث .

ونستطيع بعد التفحص الدقيق لهذه الأقسام وموضوعاتها أن نستنتج النقاط المنهجية التالية مع أمثلتها :

١ ـ **الإسرائيليات** : وهذا الموضوع هو الشرط الوحيد الذي اشترطه ، والمنهج الوحيد الذي رسمه[2] ، وأوضحه في المقدمة وخلال الجزء الأول والثاني من الكتاب ، بل والتزم به إلى حدٍّ بعيد ، فقال في المقدمة :

---

(١) انظر البداية والنهاية (٤/ ٤٥٠) وكيف أثبت أن الكتاب بإسقاط الجزية عن اليهود مزورٌ وباطلٌ .

(٢) قال الندوي في كتابه « الإمام ابن كثير » (ص : ٣١٥) : شغل ابن كثير موضوع الإسرائيليات فنسي في بيان منهجه ذكر سواها . . » .

« ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله ، مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهو القسم الذي لا يُصدَّق ولا يكذَّب . . »[1] .

وقال في باب ما جاء في سبع أرضين : « وهكذا الأثر المروي عن ابن عباس أنه قال : في كل أرض من الخلق مثل ما في هذه ، حتى آدم كآدمكم ، وإبراهيم كإبراهيمكم ، فهذا ذكره ابن جرير مختصراً ، واستقصاه البيهقي في « الأسماء والصفات » ، وهو محمولٌ إنْ صحَّ نقله عنه ، على أنه أخذه ابن عباس عن الإسرائيليات ، والله أعلم »[2] .

وقال في باب ذكر ما يتعلق بخلق السماوات : « وأما ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت وماروت من أن الزهرة كانت امرأة فراودها عن نفسها ، فأبت إلا أن يعلِّماها الاسم الأعظم ، فعلَّماها ، فقالته ، فرُفعت كوكباً إلى السماء ، فهذا من وضع الإسرائيليين ، وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار »[3] .

ورغم ذلك فإن ابن كثير ـ رحمه الله ـ لم يسلم من إيراد بعض الإسرائيليات المحتوية على مبالغات وخرافات ، وتناقض مع القرآن والسنة ، وقد حمله على إيرادها شهوة الجمع ، ودافع التقليد لمن سبقه من المؤلفين .

٢ ـ ذكر المصدر : الذي يستقي منه أخباره ، وهذه أمانة علمية ، وقد سمعنا من شيوخنا ـ رحمهم الله ـ أن بركة العلم في أمانة النقل وصدق العزو . فالحافظ ابن كثير يختصر بعض المعارك ويشير إليها موسعة في ابن جرير الطبري[4] ، ويرد المنتظم لابن الجوزي ، ويصرح بذلك في مواضع متعددة[5] ويرد الكامل[6] لابن الأثير ويصرح بذلك أيضاً .

٣ ـ النقد : لأصحاب الكتب من الكبار ، وهذا النقد يدل على شخصية مستقلة ، وعقل حرّ ، وعدم السكوت عن إظهار الحق . فنراه يُظهر رأيه في المختار الثقفي ، ونقده للطبري[7] في شأنه ، وينتقد ابن خلكان[8] بمرارة لموقفه المريب من ابن الراوندي الزنديق ، كما ينتقد شيخه الذهبي[9] في اغتراره بصاحب العقد الفريد .

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٨) .
(٢) المصدر السابق (١/ ٣٩) .
(٣) المصدر السابق (١/ ٦٣) .
(٤) المصدر السابق (٧/ ٩٢) .
(٥) المصدر السابق (١١/ ٣٢٥) .
(٦) البداية والنهاية (١٢/ ١٥٠) .
(٧) المصدر السابق (٩/ ٢٤) .
(٨) المصدر السابق (١١/ ٤٠٦) .
(٩) المصدر السابق (١٠/ ٢٣٦) .

٤ ـ الفقه : ويدلُّ على تعدد جوانب ثقافته ، ولم نتوقف عند بروز خبراته المدهشة في علوم التفسير والحديث ، فهذه طبيعية في مقدمات الكتاب ونهايته ، أما أن تطغى شخصية العالم الفقيه على المؤرخ ، فهذا منهج خاص يستحق التسجيل ، والتمثيل . وينظر في ذلك تحقيقه في من ولي تزويج أم سلمة رضي الله عنها[١] ، وتحقيقه حكم أكل لحوم الحمر الأهلية[٢] ، وبيان حكم نكاح المتعة[٣] .

٥ ـ التاريخ الحولي : والحول السنة ؛ اعتباراً بانقلابها ، ودوران الشمس في مطالعها ومغاربها ؛ قال الله تعالى : ﴿ ۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ، وقال سبحانه : ﴿ مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ [البقرة : ٢٤٠] .

وأسلوب التاريخ الحولي ظهر عند المؤرخين المسلمين منذ مدة مبكرة ، في المئة الثانية للهجرة ، وهذا يعني أنه ظهر في أوليات التدوين التاريخي ، فقد ذُكِرَ أنَّ الهيثم بن عدي المتوفى سنة ٢٠٧هـ قد ألَّف تاريخاً على السنين[٤] ، وألف ابن سعد كاتب الواقدي ، المتوفى سنة ٢٣٠هـ تاريخاً على السنين أيضاً[٥] ، ووصل إلينا تاريخ خليفة بن خياط المتوفى سنة ٢٤٠هـ[٦] .

والتاريخ الحولي المرتب على السنين مرتبط بتاريخ الهجرة النبوية ، ولذلك فإن التأثيرات الأجنبية فيه تكاد أن تكون معدومة ، ومن ثم فهو مما اهتمَّ به المؤرخون المسلمون .

وكانت التواريخ الحولية الأولى ، ومن أعظمها تاريخ الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ ، تعنى بالحوادث التاريخية بالدرجة الأولى ، وقلما أعطت أهمية كبيرة ومتميزة للتراجم . وقد ظهر تحوّل واضح منذ القرن السادس الهجري في هذا النمط من الكتب التاريخية لا سيما عند المؤرخين المحدِّثين حيث زاد اهتمامهم بذكر التراجم ، ويبدو ذلك واضحاً في كتاب « المنتظم » لابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ حيث أدخل تقسيماً واضحاً بين الحوادث والوفيات ، فجعل التراجم تعقب حوادث كل سنة . وقد ظلت هذه الطريقة تؤثر في أطر الصور الحولية للمؤلفات التاريخية التي جاءت بعده ، ومنها كتاب البداية لابن كثير[٧] .

٦ ـ الوفيات : ويضعها في نهاية كل سنة تحت عنوان : « من توفي في هذه السنة » وقد يطيل

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٧٨) .
(٢) المصدر السابق (٤/ ٤١٠) .
(٣) المصدر السابق (٤/ ٤١٢) .
(٤) ياقوت : معجم الأدباء (٦/ ٢٧٩٢) (بتحقيق العلامة إحسان عباس) .
(٥) تنظر مقدمة الدكتور بشار عواد معروف لتاريخ مدينة السلام (١/ ١٠٨ ـ ١٠٩) ففيها تفصيل .
(٦) حققه الدكتور أكرم العمري ونشر غير مرة .
(٧) تنظر تفاصيل ذلك في كتاب الدكتور بشار عواد معروف : الذهبي ومنهجه (ص ٣٠٣) فما بعد (القاهرة ١٩٧٦م) .

في الترجمة ، وقد يختصر ، متبعاً في ذلك المصدر الذي يعتمد عليه ، وقد خالف الترتيب في الجزء الأخير من تاريخه ، فأصبح بدءاً من سنة (٧٣٨) يذكر الوفيات مع الحوادث .

ولئن انتقد ابن خلكان[١] بإطالة تراجم الشعراء واختصار تراجم العلماء ؛ فإنه لم يسلم من هذا المحذور ، وقد أطال في ترجمة الفرزدق[٢] وأبي نواس[٣] ، وغيرهما من الشعراء .

٧ ـ **قوة الشخصية وظهورها** : عند نهاية كل رواية ، يناقش ابن كثير ويرجح ، أو يحيل إلى كتبه ، وبخاصة في التفسير والأحكام والطبقات ، ويستفيد من حفظه المتين وذاكرته القوية ، ويسخر من الروايات الخرافية المكذوبة ، فيثبت أن حديثاً[٤] من أفراد البخاري يذهب إلى تقديم الإسراء والمعراج على وفاة عمه ﷺ أبي طالب ، وزوجه خديجة رضي الله عنها ، وأن حديثاً[٥] مكذوباً وموضوعاً يذكر أن القمر دخل في كم رسول الله ﷺ .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

---

(١) المصدر السابق (١٠/ ١٠٨) .

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ١١٠) .

(٣) المصدر السابق (١٠/ ٥٣٠) .

(٤) المصدر السابق (٣/ ٣٤٩) .

(٥) المصدر السابق (٣/ ٣٦٠) .

ثالثاً : الأسلوب :

يتميز أسلوب الحافظ ابن كثير في كتاب « البداية والنهاية » عن غيره من الكتب ، باختيار التعبير السهل الواضح المشوق ، والبعد عن المحسنات البديعية ، والزخارف اللفظية ، وكل ما يتصل بالتكلف ، والاحتفال بأناقة الشكل ، مع الالتزام بسلامة المعنى وصحة العبارة . وهذا الاختيار للأسلوب العلمي المبسط الذي يوصل المعنى التاريخي بأوضح لفظ وأبسط تعبير ، يدلُّ على سلامة الاختيار والتوفيق في تحقيقه ، كما يثبت قوة المؤلف في ثقافته الأدبية وثروته اللغوية ، نلمحها في البداية والنهاية أحياناً ، وتظهر في باقي كتبه ـ كالتفسير ـ بكل وضوح .

يقول ابن العماد : « يشارك في العربية مشاركة جيدة ، وينظم الشعر »[1] ويقول الشرباصي : « تشغله الفكرة والمعاني عن التكلف في الأسلوب والمباني »[2] .

ومع التنوع الواضح في أجزاء الكتاب وأقسامه ؛ تبعاً لتنوع المصادر والأمكنة والأزمنة كما أشرنا في « المنهج » ، فإننا نستطيع أن نتلمس صوراً ومواقف ومشاعر لصيقة بأسلوب المؤلف وهويته ، وصدق من قال : الأسلوب هو الرجل :

١ ـ **البعد عن تكلف السجع** : وإذا سجع ورادف بين الجمل والكلمات ؛ فإنه لا يطيل ، وأقرب مثال على ذلك خطبة « البداية والنهاية » إذ يقول : « الحمد لله الأول والآخر ، الباطن الظاهر ، الذي هو بكل شيء عليم ، الأول فليس قبله شيء ، الآخر فليس بعده شيء ، الظاهر فليس فوقه شيء ، الباطن فليس دونه شيء ، الأزليّ القديم الذي لم يزل ولا زوال ، يعلم دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصمَّاء ، في الليلة الظلماء . . . »[3] .

وحول بدعة خلق القرآن يقول : « وهذه بدعة صلعاء ، شنعاء ، عمياء ، صمَّاء ، لا مستند لها من كتاب ولا سنة ، ولا عقل صحيح ، ولا نقل صريح . . بل القرآن والسنة والعقل الصحيح على خلافها »[4] .

وحين قصد صلاح الدين الأيوبي بلاد الشام سنة (٥٧٠هـ) يقول : « وذلك حين مات سلطانها

---

(١) شذرات الذهب (٨/ ٣٠٢) .
(٢) الإمام ابن كثير ؛ للندوي (ص : ٣٢٣) نقلاً عن مجلة الحج .
(٣) البداية والنهاية (١/ ٥) .
(٤) المصدر السابق (١١/ ١٢٤) .

نور الدين محمود بن زنكي ، وأخيف سكانها ، وتضعضعت أركانها ، واختلفت حكامها ، وفسد نقضها وإبرامها ، قصد لجمع شملها ، والإحسان إلى أهلها ، وأمن سهلها وجبلها ، ونصرة الإسلام ، ودفع الطغام . . »[١] .

٢ ـ **لا ينقل حرفياً** : وإنما يقرأ الواقعة في مصدره ، ويصوغه بعباراته وألفاظه ، ويضيف ما يجده مناسباً من انتقاداته وتعليقاته . وعندما أراد بعضهم مقارنة ما في البداية والنهاية مع تاريخ الطبري أو غيره ، ظنوا أن ابن كثير لم يرد إلى تاريخ الطبري مباشرة ، وإنما أخذ مادته من مصدر آخر ، وقد أخطأوا في ظنهم ؛ لأنهم لم يتثبتوا من أسلوبه ومنهجه .

وأوضح مثال على ذلك ما كتبه في ترجمة الحلاج[٢] ، وما حلَّ ببغداد بعد دخول التتار من خراب ودمار[٣] ، وما كتبه من وصف دمشق وبناء مسجدها[٤] .

٣ ـ **عاطفته الصادقة** :في حبِّ الله تعالى ، وحب رسوله ﷺ ، وحب الصحابة جميعاً ومن تبعهم بخير وإحسان ، وكراهيته لأهل الكفر والزيغ والبطلان ، وتأثره بما وقع للمسلمين من فتن واختلاف ، مما أوقف الدعوة والفتوح ، ورد أسلحة المسلمين إلى نحورهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . . ونجد هذه العاطفة الصادقة تظهر عند ارتداد جبلة بن الأيهم الغساني ، ويصفه بأنه حيوان[٥] ! ، كما تبدو عاطفته عارمة عند مقتل ابن الزبير ، ووصفه للحجَّاج القاتل بالمبير ، ولابن الزبير المقتول بأمير المؤمنين[٦] .

وينقد بحرارة استدلال الجهمية على أن الاستواء بمعنى الاستيلاء، ويستشهدون بقول الأخطل :

قد استوى بشرٌ على العراق   مـن غيـر سيـف ودمٍ مهـراق

ويقول : ولا دليل فيه ، والبيت للأخطل ، وهو نصراني[٧] .

ولا ريب أن الأسلوب السهل الممتنع ، والخاص بالحافظ ابن كثير ، والمتجلي في « البداية والنهاية » ، والعاطفة الصادقة والمخلصة في الانتصار للفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة ، كل ذلك جعل هذا الكتاب مباركاً ومعاصراً في آن واحد ، وكأن مؤلفه كتبه للأجيال القادمة بلغتها وأسلوبها ومشاعرها !! .

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ١٣١) .
(٢) المصدر السابق (١٢/ ٤٠) .
(٣) المصدر السابق (١٠/ ٣٣٨) .
(٤) المصدر السابق (١٠/ ٣٣٨) .
(٥) البداية والنهاية (٨/ ٩٠) .
(٦) المصدر السابق (٨/ ١٠٥ و ١٠٨ و ١٠٩) .
(٧) المصدر السابق (٩/ ١٣٨) .

رابعاً : الموارد والمصادر :

عني المؤرخ ابن كثير بجميع المصادر القديمة المتوافرة بين يديه في القرن الثامن الهجري ، وجمع في تاريخه بين أنواع العلوم الإسلامية المتعددة ، وموارده الأساس القرآن الكريم ، وكتب التفاسير القديمة ، وكتب الحديث ، وكتب التراجم ، وكتب المغازي والسِّير والتاريخ . مما يدل على تبحر وسعة اطلاع ، وسلامة منهج ، وقيمة أفكار وموضوعات ، وقد أحسن ابن كثير ـ رحمه الله ـ وأجاد ، وأتى بالمراد ، وعرَّفنا على كتب أمهات ، وبعضها لم يصلنا حتى الآن .

على أننا ينبغي أن نشير إلى أن الحافظ ابن كثير كان يتتبع المصادر الأصلية المعاصرة فيختصرها ، وربما يقتصر عليها في كثير من الأحيان ، من نحو عنايته البالغة بالنقل من تاريخ الطبري ، والمنتظم لابن الجوزي لاسيما في المدة التي عاصرها ، ثم بعده على تاريخ مؤرخ العراق تاج الدين ابن الساعي المتوفى سنة ٦٧٤هـ ، وتاريخ شيخه البرزالي الذي كاد أن يقتصر عليه في المدة التي تناولها ٦٦٥ ـ ٧٣٨هـ ونحو ذلك .

وكان من المعروف بين كثير من المؤرخين المسلمين عند النقل من مصدر معين أن ينقل مصادره أيضاً ، فيصبح من العسير في بعض الأحيان معرفة المصادر الحقيقية التي اطلع عليها المؤلف .

ومع كل ذلك فإننا سنحاول في هذه المقدمة المختصرة المعتصرة أن نضع بين يدي القارئ أسماء هذه الموارد[1] والمصادر ، وأسماء مؤلفيها ، وقد قسَّمناها إلى مواضيع موحدة ، ورتبناها حسب أهميتها ، وورود المؤلف إليها :

أ ـ كتب التفسير :

١ ـ تفسير ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) .
٢ ـ تفسير ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ) .
٣ ـ تفسير السدي الكبير (ت ١٢٧ هـ) .
٤ ـ تفسير عبد الرزاق (ت ٢١١ هـ) .
٥ ـ تفسير ابن مردويه (ت ٤١٠ هـ) .
٦ ـ تفسير شجاع بن مخلد (ت ٣٥٥ هـ) .
٧ ـ تفسير محمد بن الحسن النقاش (ت ٣١٥هـ).
٨ ـ التعريف والإعلام ؛ للسهيلي (ت ٥٨١هـ).
٩ ـ تفسير القاضي بن سعيد البلوطي (ت ٣٥٥ هـ).
١٠ ـ تفسير ابن عطية (ت ٣٨٣ هـ) .
١١ ـ تفسير أبي عيسى الروياني (ت ٣٨٤ هـ) .
١٢ ـ تفسير القاضي الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) .
١٣ ـ تفسير فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) .
١٤ ـ تفسير القرطبي (ت ٦٧١ هـ) .

---

(١) انظر هذه الموارد مفصَّلة مع بيان أماكن ورود ابن كثير عليها في كتاب « الإمام ابن كثير » للندوي (ص : ١٦٠) وما بعدها .

ب ـ الكتب السماوية :

١ ـ ترجمة التوراة . ٢ ـ ترجمة الإنجيل .

ولم يعتمدها ابن كثير مصادراً لأخباره، وإنما أوردها ليثبت ما طرأ عليها من تحريف وتبديل .

ج ـ كتب الحديث ورجاله :

١ ـ الموطأ ، للإمام مالك (ت ١٧٩ هـ) .
٢ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ).
٣ ـ صحيح الإمام البخاري (ت ٢٥٦ هـ) .
٤ ـ صحيح الإمام مسلم (ت ٢٦١ هـ) .
٥ ـ المستدرك للحاكم (ت ٤٠٥ هـ) .
٦ ـ صحيح ابن خزيمة (ت ٣١١ هـ) .
٧ ـ سنن أبي داود (ت ٢٧٥ هـ) .
٨ ـ سنن ابن ماجه (ت ٢٧٣ هـ) .
٩ ـ سنن النسائي (ت ٣٠٣ هـ) .
١٠ ـ سنن الدارقطني (ت ٣٨٥ هـ) .
١١ ـ الجامع الكبير ؛ للترمذي (ت ٢٧٩ هـ) .
١٢ ـ مسند أبي داود الطيالسي (ت ٢٠٤ هـ) .
١٣ ـ مسند الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) .
١٤ ـ مسند أبي يعلى الموصلي (ت ٣٠٧ هـ) .
١٥ ـ مصنف ابن أبي شيبة (ت ٢٣٥ هـ) .
١٦ ـ معجم الطبراني الكبير (ت ٣٦٠ هـ) .
١٧ ـ معجم الصحابة ؛ للبغوي (ت ٣١٧ هـ) .
١٨ ـ الكامل ؛ لابن عدي (ت ٣٦٥ هـ) .
١٩ ـ أسد الغابة ؛ لابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) .
٢٠ ـ الاستيعاب؛ لابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) .
٢١ ـ شرح مشكل الآثار، للطحاوي (ت ٣٢١ هـ).
٢٢ ـ الموضوعات ؛ لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ).
٢٣ ـ تهذيب الكمال؛ لأبي الحجاج المزي (ت ٧٤٢هـ).
٢٤ ـ ميزان الاعتدال ؛ للذهبي (ت ٧٤٨هـ).

د ـ كتب السير والمغازي :

١ ـ سيرة ابن إسحاق[1] (ت ١٥١هـ) .
٢ ـ مغازي موسى بن عقبة (ت ١٤١هـ) .
٣ ـ سيرة ابن هشام (ت ٢١٨هـ) .
٤ ـ الروض الأُنف ؛ للسهيلي (ت ٥٨١هـ) .
٥ ـ مغازي الواقدي (ت ٢٠٧هـ) .
٦ ـ مغازي محمد بن عائذ (ت ٢٣٣هـ) .
٧ ـ طبقات ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) .
٨ ـ مغازي الأموي (ت ٢٤٩هـ) .

هـ ـ كتب الدلائل :

١ ـ دلائل النبوة ؛ للبيهقي (ت ٤٥٨هـ) .
٢ ـ دلائل النبوة ، لأبي نعيم (ت ٤٣٠هـ) .
٣ ـ دلائل النبوة ؛ لابن حامد (ت ٤٠٣هـ) .
٤ ـ دلائل النبوة ؛ لأبي زرعة (ت ٢٦٤هـ) .
٥ ـ دلائلة النبوة ؛ لابن شاهين (ت ٣٨٥هـ) .
٦ ـ المبعث ؛ لهشام بن عمار (ت ٢٤٥هـ) .

---

(١) من المرجح أن ابن كثير رحمه الله رجع إلى روايات متعددة لسيرة ابن إسحاق ، سواء من طريق مباشر أم بالواسطة ، ولا سيما روايات : البكائي ـ وهي التي اختصرها ابن هشام ـ أو يونس بن بكير ، أو سلمة بن الفضل الأبرش وغيرهم .

٧ ـ الفتن والملاحم؛ لابن عماد الخزاعي (ت ٢٤٨هـ). ٨ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ؛ لابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) .

و ـ كتب التاريخ الإسلامي :

١ ـ تاريخ الطبري (ت ٣١٠ هـ) . ٢ ـ تاريخ دمشق ؛ لابن عساكر (ت ٥٧١هـ) .
٣ ـ تاريخ الإسلام ؛ للذهبي (ت ٧٤٨هـ) . ٤ ـ سير أعلام النبلاء ، للذهبي (ت ٧٤٨هـ) .
٥ ـ المنتظم ؛ لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) . ٦ ـ الكامل ؛ لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) .
٧ ـ مرآة الزمان ، لسبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ). ٨ ـ كتاب الروضتين ؛ لأبي شامة (ت ٦٦٥هـ).
٩ ـ البرق الشامي ؛ للعماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ). ١٠ ـ الجامع المختصر؛ لابن الساعي (ت ٦٧٤هـ).
١١ ـ تاريخ بغداد ؛ للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ). ١٢ ـ وفيات الأعيان؛ لابن خلكان (ت ٦٨١هـ).
١٣ ـ ذيل الروضتين ؛ لأبي شامة (ت ٦٦٥هـ) . ١٤ ـ ذيل مرآة الزمان ، لليونيني (ت ٧٢٩هـ) .
١٥ ـ المقتفى لتاريخ أبي شامة ؛ لِلبِرزالي (ت ٧٣٩هـ).

خامساً : طبعات البداية والنهاية :

أ ـ البداية ، ويهمنا الطبعات المشهورة وهي :

١ ـ الطبعة التي أنفقت عليها مطبعة السعادة ، والمطبعة السلفية ، ومكتبة الخانجي ، وطُبعت في مطبعة السعادة بالقاهرة ، نقلاً عن مخطوطة المدرسة الأحمدية بمدينة حلب من الجمهورية العربية السورية ـ عام ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م في ١٤ مجلداً بدون النهاية . وهي أقدم الطبعات .

٢ ـ طبعة المعارف ببيروت ، بالاشتراك مع مكتبة النصر بالرياض عام ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م ، وهي طبعة مصورة عن طبعة السعادة ، وهي النسخة المعتمدة بالمقابلة .

٣ ـ طبعة دار هجر ، مكتوب على غلافها : تحقيق الدكتور عبد الله المحسن التركي ، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية في دار هجر بالقاهرة عام ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م في ٢١ مجلداً مع النهاية . وهي مقابلة على عدد من النسخ المخطوطة .

ب ـ أما طبعات النهاية (الفتن والملاحم) فهي :

١ ـ طبعة دار الكتب الحديثة بالقاهرة ـ بتحقيق الدكتور طه محمد الزيني ـ عام ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م في جزأين .

٢ ـ طبعة مكتبة النصر الحديثة بالرياض ، بتحقيق محمد فهيم أبو عبية عام ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٨م في ثلاثة أجزاء .

٣ ـ طبعة دار الإفتاء بالرياض ، قام بنشرها الشيخ إسماعيل الأنصاري عام ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م في جزأين .

(٤)

ثبت بأجزاء كتاب « البداية والنهاية » وأسماء المحققين لها

الرقم	اسم المحقق	رقم الجزء
1-	د . محيي الدين ديب مستو	الأول
2-	د . علي أبو زيد أبو زيد	الثاني
3-	مأمون محمد سعيد صاغرجي	الثالث
4-	محمود عبد القادر الأرناؤوط	الرابع
5-	د . رياض عبد الحميد مراد	الخامس
6-	د . محيي الدين ديب مستو	السادس
7-	د . رياض عبد الحميد ومحمد حسان عبيد	السابع
8-	أكرم عبد اللطيف البوشي	الثامن
9-	محمد حسان عبيد	التاسع
10-	مأمون محمد سعيد صاغرجي	العاشر
11-	ياسين محمد السواس	الحادي عشر
12-	إبراهيم عمر الزيبق	الثاني عشر
13-	صلاح محمد الخيمي رحمه الله	الثالث عشر
14-	د . رياض عبد الحميد مراد	الرابع عشر
15-	د . رياض عبد الحميد مراد ومحمد حسان عبيد	الخامس عشر
16-	حسن إسماعيل مروة	السادس عشر
17-	الشيخ عبد القادر الأرناؤوط رحمه الله	السابع عشر
18-	محمود عبد القادر الأرناؤوط	الفهارس ـ الجزء الأول
19-	أكرم عبد اللطيف البوشي	الفهارس ـ الجزء الثاني
20-	د . رياض عبد الحميد مراد	الفهارس ـ الجزء الثالث
21-	د . رياض عبد الحميد مراد	الفهارس ـ الجزء الرابع

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

(٥)

وصف النسخ المخطوطة

ونماذج من صورها

أولًا ـ النسخة الأحمدية :

ورُمز لها بحرف « أ » ، وهي نسخة الأحمدية بمدينة حلب المحمية رقم (١٢١٧) ، والمحفوظة الآن بمكتبة الأسد الوطنية في دمشق الفيحاء باسم « البداية والنهاية » للحافظ ابن كثير ، وتقع في عشرة أجزاء :

١ ـ الجزء الأول : (٢٩٢) ق ـ قياس ٣٠ × ٢١,٥سم في كل صفحة (٢٩) سطراً ، الرقم : ١٤٥٠٨ .

٢ ـ الجزء الثاني : (٢٥٠) ق ـ قياس ٣١ × ٢١,٥سم في كل صفحة (٢٥) سطراً ، الرقم : ١٤٥٠٨ .

٣ و٤ ـ الجزء الثالث والرابع : (٥٥٦) ق ـ قياس ٢٤,٥ × ١٥سم في كل صفحة (٢٣) سطراً ، الرقم : ١٤٥١٠ .

٥ ـ الجزء الخامس : (١٧٨) ق ـ قياس ٢٧ × ١٨سم في كل صفحة (٢٩) سطراً ، الرقم : ١٤٥١١ .

٦ ـ الجزء السادس : (٢٣٩) ق ـ قياس ٢٧ × ١٨سم في كل صفحة (٢٥) سطراً ، الرقم : ١٤٥١٢ .

٧ ـ الجزء السابع : (٢٢٤) ق ـ قياس ٢٧ × ١٨سم في كل صفحة (٢٣) سطراً ، الرقم : ١٤٥٣ .

٨ ـ الجزء الثامن : (٢٨٣) ق ـ قياس ٢٧ × ١٨سم في كل صفحة (٢٥) سطراً ، الرقم : ١٤٥١٤ .

٩ ـ الجزء التاسع : (٣٥٦) ق ـ قياس ٢٧ × ١٨سم في كل صفحة (٢٧) سطراً ، الرقم : ١٤٥١٥ .

١٠ ـ **الجزء العاشر** : (٢٨٣) ق ـ قياس ٢٩ × ١٩,٥سم في كل صفحة (٢٧) سطراً ، ضمن مجموع ، الرقم : ١٤٥١٦ .

النهاية في الفتن والملاحم : (٢٨٥ ـ ٤٦٦) ق ـ من المخطوط رقم : ١٤٥١٦ ت١ ـ قياس ٢٩,٥ × ١٩,٥ سم في كل صفحة (٢٦) سطراً .

وتنتهي البداية في النسخة الأحمدية بوفيات سنة ٧٣٨هـ .

والنسخة الأحمدية كاملة إلى سنة ٧٣٨هـ ومصححة ، كتبت العناوين ورؤوس الفقرات بالحمرة ، الخط : نسخ معتاد ، لم نجد اسم الناسخ ، أو تاريخ النسخ .

الغلاف ـ مزخرف ـ وفي الصفحة الأولى من الجزء الأول تملكات في سنة ٨٧٤هـ وسنة ٩٢٣هـ ، وتملكات وقراءات غير مؤرخة .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

ثانياً ـ نسخة برلين :

ورُمز لها بحرف « ب » وهي نسخة محفوظة في مكتبة برلين الوطنية ، تبدأ بصفحة عليها تملكات ، والصفحة الثانية فيها عنوان الكتاب هكذا : الجزء الأول من البداية والنهاية ، للحافظ العلامة الكبير ، عماد الدين ، أبي الفداء ، إسماعيل بن كثير ـ رحمه الله ـ فهرست ما في هذا المجلد . .

وعلى يمين الصفحة ثلاثة أبيات في مدح التاريخ قرأها الناسخ بخط العلامة شمس الدين السخاوي ، نقلاً عن سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان ، من قول القاضي الأردالي [الطويل] :

إذا علمَ الإنسانُ أخبارَ ما مضى ... توهمتَه قد عاشَ من أوّلِ الدهرِ
وتحسبُه قد عاشَ آخرَ عمرِه ... إذا كان قد أبقى الجميلَ مِنَ الذكرِ
فقد عاشَ كلَّ الدَّهرِ مَنْ كان عالِماً ... حليماً كريماً فاغتنم أطول العمرِ

وهي نسخة تبدأ بأوائل الجزء الأول ، وتنتهي بوفيات سنة ٧٣٨هـ ، وبهامشها تعليقات ، وكتبت العناوين ورؤوس الفقرات بلون مغاير ، وخطها نسخي قديم ، (٧٨٠) ق ـ قياس ٢٠ × ١٣سم في كل صفحة (٣٠) سطراً ، كتبها محمد بن سلطان بن سعيد البعلي الحنبلي ـ عفا الله عنه بمنه وكرمه ـ ولم نجد تاريخ النسخ .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

ثالثاً ـ نسخة الظاهرية :

ورُمز لها بحرف « ظ » ، وهي نسخة المكتبة الظاهرية سابقاً ، ومحفوظة بمكتبة الأسد الوطنية ، في دمشق المحمية ، برقم : ٦٧٩٧ .

وهي نسخة ناقصة ، تحتوي على (١٥٤) ق ـ قياس ٣١ × ٢٠سم في كل صفحة من (٣١) إلى (٣٣) سطراً ، ومؤطرة بالأحمر والأصفر والأسود ، وكتبت السنون بالمداد الأحمر . كتبها حبيب الله بن قمر الدين ، وتاريخ نسخها ١١٨١هـ ، وخطها نسخي جيد . .

تبدأ بقول المؤلف : عبد الله بن علي « وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبيد الله بن الحسن الأعرج عن ولد جعفر بن أبي طالب » وتنتهي : قال يا هذا شققت عليَّ وضيقت عليها ، ولكن اذهب فتصدَّق بها . آخر المجلد ، والحمد لله وحده . الغلاف ـ مزخرف بالذهب ـ متأثرة بالرطوبة ، مما أدَّى إلى اهتراء أطرافها ، تملكها : أحمد بن إبراهيم بن نصر سنة ١٢٢٧هـ .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

رابعاً : نسخة الرباط

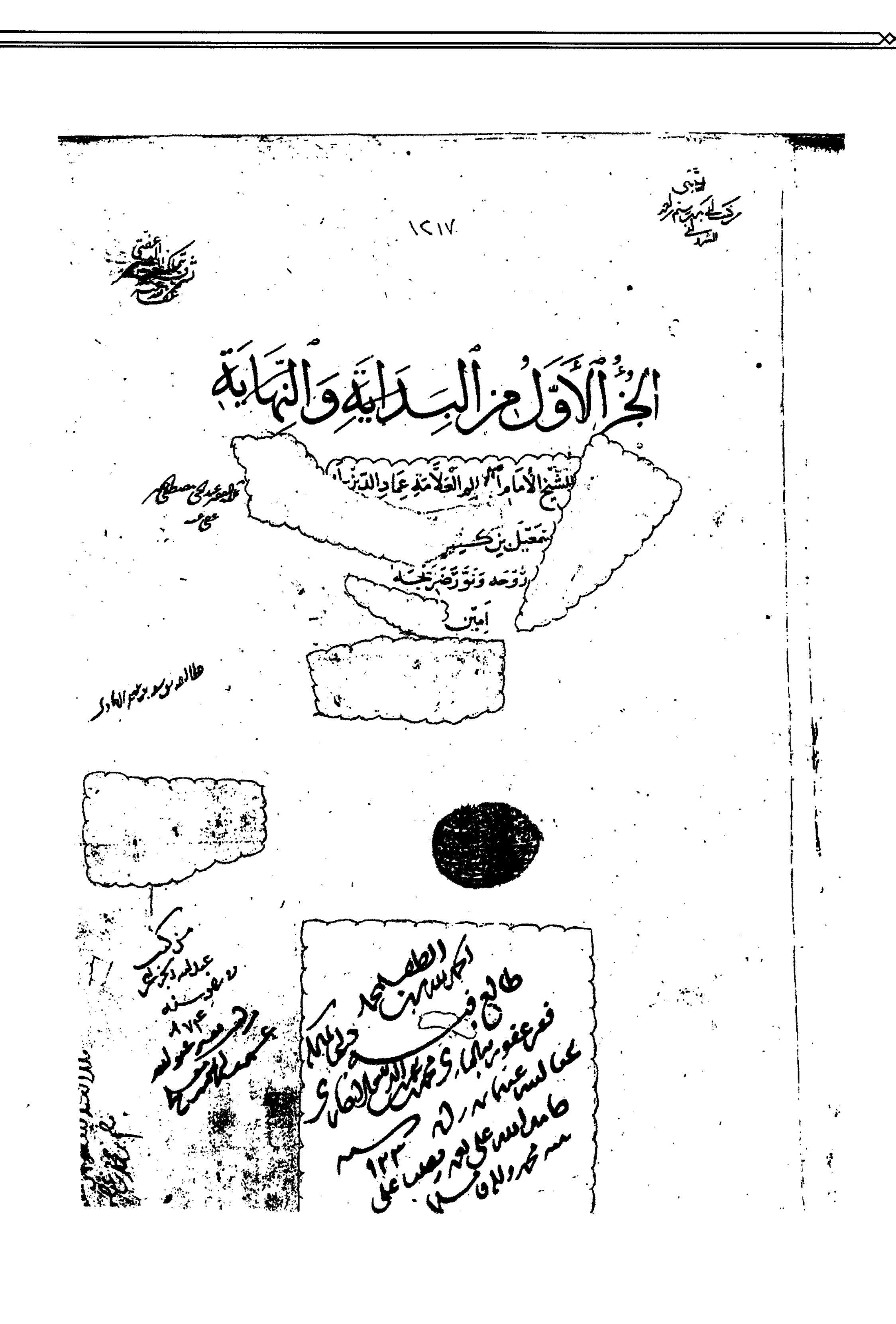
وهو مجلد عثر عليه الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف في الخزانة الملكية بالرباط ، يبدأ من خلافة الحسن وينتهي بانتهاء الخلافة الأموية ، وكان يُظن أنه مجلد من تاريخ الإسلام . وقد أفاد منه الدكتور بشار عند مراجعة هذا الكتاب .

وصورة هذه النسخة بحوزة الدكتور بشار عواد ، ولم يقدِّم لنا بياناتها ولا نماذج عنها لنثبتها في هذه المقدمة ، على الرغم من إلحاحنا عليه بهذا الخصوص .

وفي الختام تتقدم دار ابن كثير بشكرها الجزيل لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية و(إدارة الشؤون الإسلامية ـ قسم المطبوعات) بدولة قطر ممثلة بلجنة التدقيق والمراجعة على ما بذلته من جهد قيّم في مراجعة هذه الطبعة ، وتصويب ما كان خطأً ، واستدراك ما كان نقصاً . وإن الدار وهي تقدِّمُ هذه الطبعة ـ وهي الأولى بهذا الحجم (٢٠ × ٢٨)سم ـ بعد أن قامت اللجنة العلمية في الدار بتلافي الملاحظات جميعاً مع إضافة بعض الحواشي المفيدة خدمةً للكتاب والقارئ الكريم .

وفقنا الله لخدمة العلم وتحري الحق والله من وراء القصد

☆ ☆ ☆ ☆ ☆



صورة الصفحة الأولى من الجزء الأول

نسخة (أ) الأحمدية

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله عليه توكلت

الحمد لله الاول الاخر الباطن الظاهر الذي هو بكل شي عليم الاول فليس قبله شي الاخر فليس بعده شي الظاهر فليس فوقه شي الباطن فليس دونه شي الازلي القديم الذي لم يزل موجودا موصوفا بصفات الكمال ولا يزال دايما مستمرا باقيا سرمديا بلا انقضا ولا انفصال ولا زوال يعلم دبيب النملة على الصخرة في الليلة الظلما وعدد الرمال وهو العلي الكبير المتعال العلي العظيم الذي خلق كل شي فقدره تقديرا فرفع السموات بغير عمد وزينها بالكواكب الزاهرات وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا وسوى فوقهن سريرا شرجعا عاليا منيفا متسعا مقببا مستديرا هو العرش العظيم له قوايم عظام تحمله الملايكة الكرام وتحفه الكروبيون عليهم الصلاة والسلام ولهم زجل بالتقديس والتعظيم وكذا ارجا السموات مشحونة بالملايكة ويفد منهم كل يوم سبعون الفا الى البيت المعمور بالسما السابعة لا يعودون اليه اخر ما عليهم في تهليل وتحميد وتكبير وصلاة وتسليم ووضع الارض للانام على تيار الما وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام قبل خلق السما وانبت فيها من كل زوجين اثنين دلالة للالبا من جميع ما يحتاج العباد اليه في شتايهم وصيفهم ولكل ما يحتاجون اليه ويملكونه من حيوان بهيم وبدا خلق الانسان من طين وجعل نسله من سلالة من ما مهين في قرار مكين فجعله سميعا بصيرا بعد ان لم يكن شيا مذكورا وشرفه بالعلم والتعليم خلق بيده الكريمة ادم ابا البشر فصور جثته ونفخ فيه من روحه واسجد له ملايكته وخلق منه زوجه حوا ام البشر فانس بها وحدته واسكنهما جنته واسبغ عليهما نعمته ثم اهبطهما الى الارض لما سبق في ذلك من حكمة الحكيم وبث منهما رجالا كثيرا ونسا وقسمهم بقدره العظيم ملوكا ورعايا وفقرا واغنيا واحرارا وعبيدا وحراير واما واسكنهم ارجا الارض طولها والعرض وجعلهم خلايف فيها يخلف البعض البعض الى يوم الحساب والعرض على الحكيم العليم وسخر لهم الانهار من ساير الاقطار تشق الاقاليم الى الامصار ما بين صغار وكبار على مقدار الحاجات والاوطار وانبع لهم العيون والابار وارسل عليهم السحاب بالامطار فانبت لهم ساير صنوف الزروع والثمار واتاهم من كل ما سالوه بلسان حالهم وقالهم وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار فسبحان الكريم العظيم الحليم وكان من اعظم نعمه عليهم واحسانه اليهم بعد ان خلقهم ورزقهم ويسر لهم السبيل وانطقهم ان ارسل رسله اليهم وانزل كتبه عليهم مبينة حلاله وحرامه واخباره واحكامه وتفصيل كل شي في المبدا والمعاد يوم القيمة فالسعيد من قابل الاخبار بالتصديق والتسليم والاوامر بالانقياد والنواهي بالتعظيم ففاز بالنعيم المقيم وزحزح عن مقام المكذبين في الجحيم ذات الزقوم والحميم والعذاب الاليم احمده حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه يملا ارجا السموات والارضين دايما ابدا الابدين ودهر الداهرين الى يوم الدين في كل ساعة وان ووقت وحين كما ينبغي لجلاله العظيم وسلطانه القديم ووجهه الكريم واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ولا ولد له ولا والد له ولا صاحبة له ولا نظير له ولا وزير له ولا مشير له ولا عديد ولا نديد ولا قسيم واشهد ان محمدا عبده ورسوله وحبيبه وخليله المصطفى من

خلاصة

صورة الصفحة الثانية من الجزء الأول

نسخة (أ) الأحمدية

تاريخه رحمه الله الي زماننا هذا وكان فراغي من الانتقا من تاريخه في يوم الاربعا العشرين
من جمادي الاخر سنة احدي وخمسين وسبعمايه لحصن اسخا منتها امين الي هنا انتهى
ما كتبته من لدن خلق ادم عليه وعلي نبينا افضل الصلاة والسلام الي زماننا هذا والحمد لله
رب العالمين وصلي الله علي سيدنا محمد واله وصحبه وتابعيهم باحسان الي يوم الدين

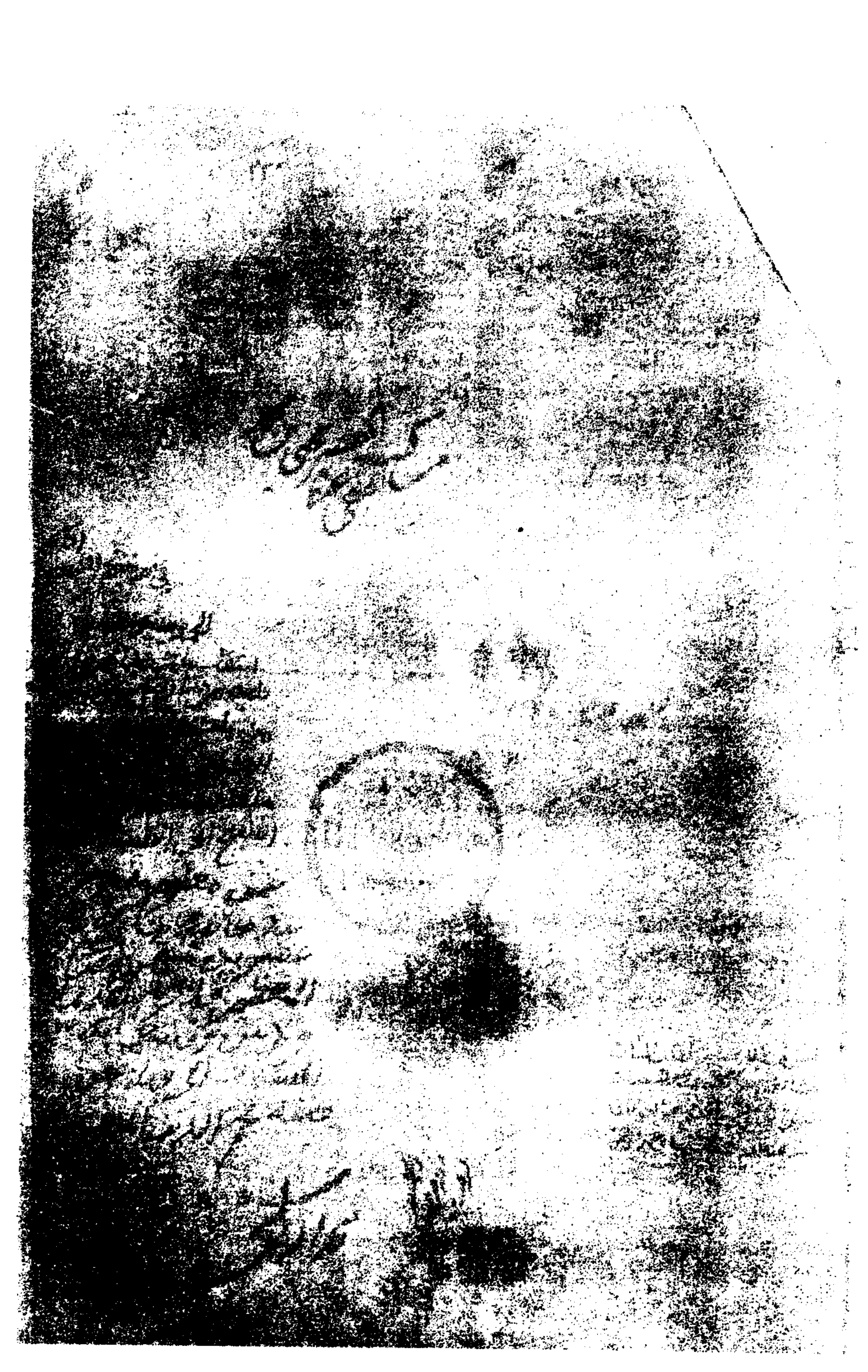
يتلوه ان شاء الله تعالى الجزو وهو النهايه في امور الآخره آخر
البدايه في البعث والنشور

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء العاشر
نسخة (أ) الأحمدية

زمانا لم يأذن لهم ثم أذن لصهيب وبلال والمقداد وعمار فأذن لهم سريعا فدخلوا فوجدوا
الأشراف غيرهم من الضعفاء الذين سبقوا وجابوا الرسول في أول ما دعاهم في أنفسهم
حيث أذن للضعفاء ولم يأذن لهم وهم جلوس على الباب أدلا فقال لهم عمرو بن
العاص وقيل إن القائل حكيم بن حزام إن القوم دعوا ودعينا فأجابوا وتأخرنا ولئن
حسدتموهم اليوم على باب عمر ودخولهم إليه لأنتم غدا أشد حسدا لهم على باب الجنة ودخولهم
إليها قبلكم قال فأخذ القوم كلامه وبكوا حتى تخلعهم والله أعلم فصل قال الزهري
كلام أهل الجنة عربي وقال سفيان بلغنا أن الناس يتكلمون يوم القيمة بالسريانية فإذا
دخلوا الجنة تكلموا بالعربية والله أعلم وقال ابن أبي الدنيا حدثني القسم بن هشام
حدثنا صفوان بن صالح حدثني داود بن الجراح العسقلاني حدثنا الأوزاعي عن هرون بن رئاب
عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل أهل الجنة الجنة على طول
آدم ستون ذراعا بذراع الملك على حسن يوسف وعلى ميلاد عيسى ثلث وثلثين سنة وعلى
لسان محمد صلى الله عليه وسلم جرد مرد مكحلين وقال ابن عباس لسان أهل الجنة عربي والله
أعلم فصل في المرأة تتزوج في الدنيا بأزواج ثم تدخل الجنة فلمن تكون منهم فذكر
القرطبي في التذكرة من طريق ابن وهب عن مالك أن أسماء بنت أبي بكر شكت زوجها الزبير
إلى أبيها فقال يا بنية اصبري فإن الزبير رجل صالح ولعله أن يكون زوجك في الجنة قال
ولقد بلغني أن الرجل إذا ابتكر المرأة أي تزوجها بكرا تكون زوجته في الجنة قال أبو بكر
بن العربي هذا حديث غريب وقد روي عن أبي الدرداء وحذيفة بن اليمان أن المرأة تكون
لآخر أزواجها في الدنيا وجاء أنها تكون لأحسنهم خلقا قال أبو بكر البخاري حدثنا جعفر
بن محمد بن شاكر حدثنا عبيد بن إسحق العطار حدثنا سنان بن هرون عن حميد عن أنس
إن أم حبيبة قالت يا رسول الله المرأة يكون لها الزوجان في الدنيا فأيهما يكون في الآخرة
فقال لأحسنهما خلقا كان معها في الدنيا ثم قال يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا
والآخرة وقد روي عن أم سلمة نحو هذا والله سبحانه أعلم وهو حسبنا ونعم الوكيل
والحمد لله رب العالمين آخره والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

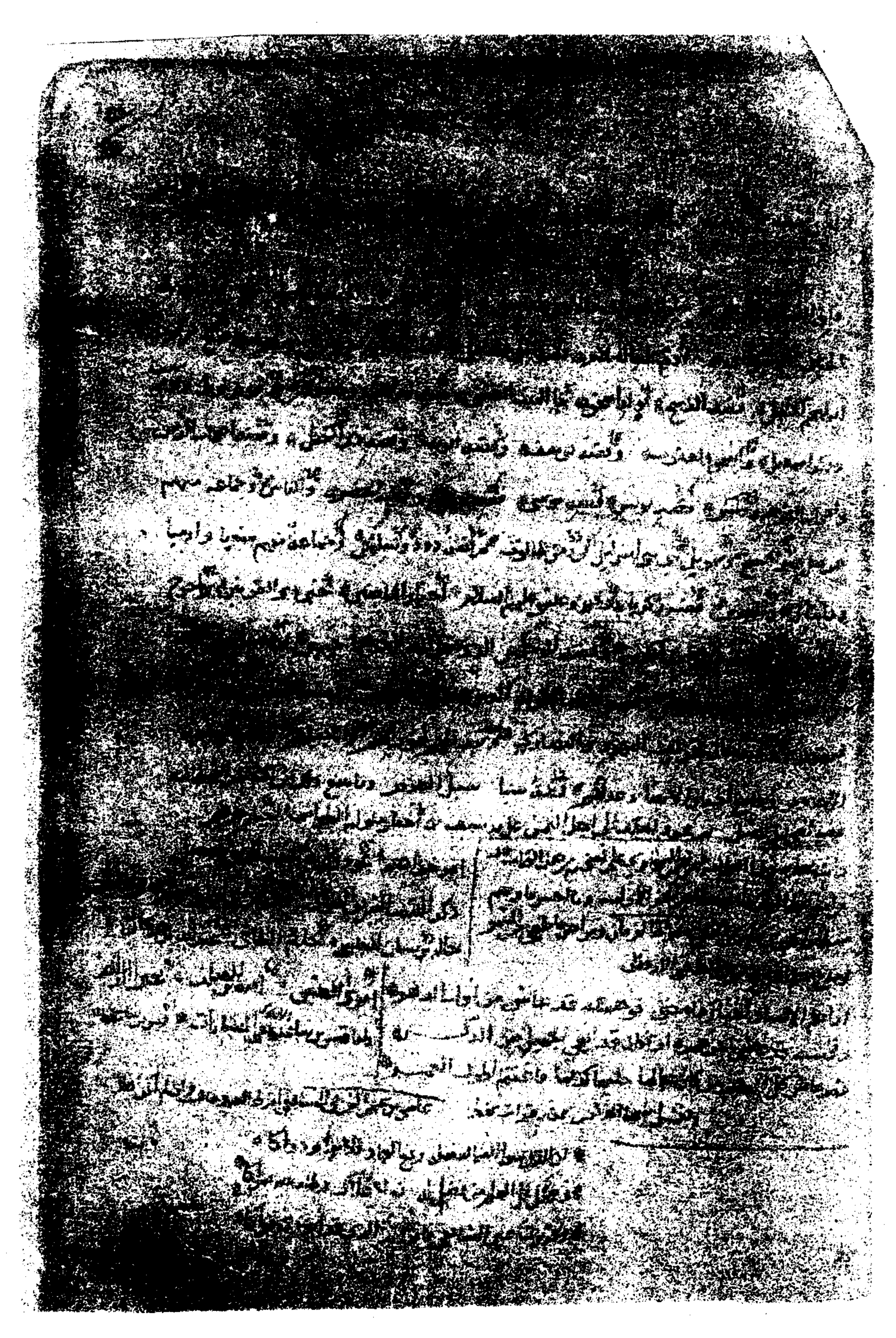
صورة الصفحة الأخيرة من النهاية في الفتن والملاحم

نسخة (أ) الأحمدية



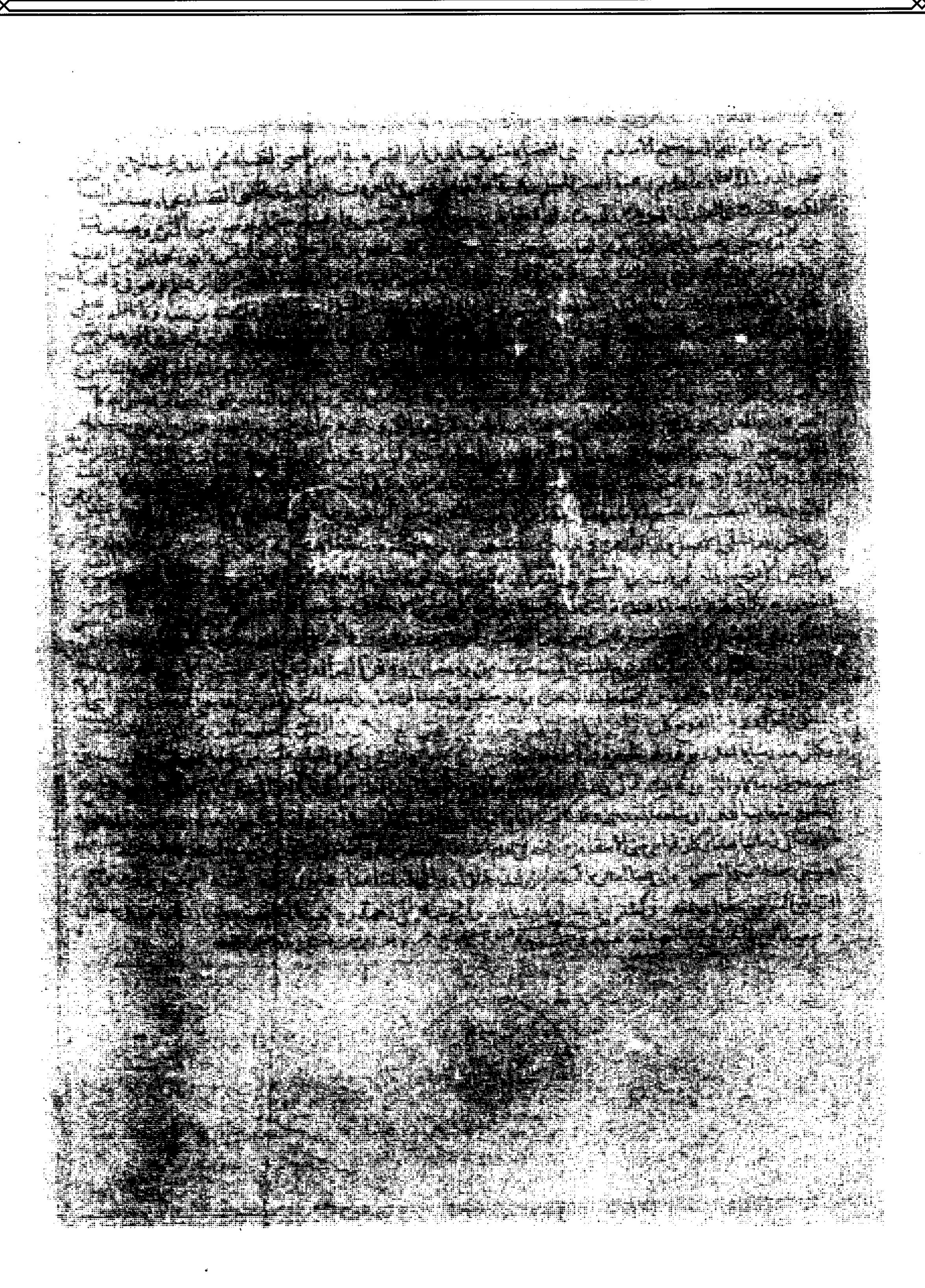
صورة الصفحة الأولى من الجزء الأول

نسخة (ب) برلين



صورة الصفحة الثانية من الجزء الأول

نسخة (ب) برلين



صورة الصفحة الأخيرة
نسخة (ب) برلين

٥٦

وبعث المامون في هذه السنه يطلب جماعة من العباسيين واحصى كم العباسيون فبلغوا ثلاثة وثلاثين الفا ما بين ذكر
وانثى وفي هذه السنه قتلت الروم ملكهم اليون وقد ملكهم سبع سنين وملكوا عليهم ميخاييل نائبه وفيها قتل المامون يحيى
بن عامر بن اسمعيل وذلك لانه قال للمامون يا امير الكافرين فقتل صبرا بين يديه وفيها حج بالناس ابو اسحق محمد المعتصم
بن هرون الرشيد وفيها توفي من الاعيان اسباط بن محمد وابو ضمرة انس بن عياض ومسلم بن قتيبة وعمر بن عبد الواحد وابن
ابي فديك ومبشر بن اسمعيل ومحمد بن حمير ومعاذ بن هشام ثم دخلت سنة احدى ومائتين فيها راود اهل بغداد
منصور بن المهدي على الخلافة فامتنع من ذلك فراودوه على ان يكون نائبا للمامون يدعو له في الخطبة فاجابهم الى ذلك
وذلك بعد اخراج اهل بغداد علي بن هشام نائب الحسن بن سهل من بين اظهرهم فجرت حروب كثيرة بسبب ذلك وفي
هذه السنه عم البلاء بالعيارين والشطار والفساق ببغداد وما حولها من القرى فكانوا ياتون الرجل يسالونه مالا يقرضهم
او يصلهم به فيمتنع عليهم فياخذون ما شاؤوا من الغلمان والنسوان وانتهبوا اهل قطربل ولم يدعوا لهم شيا اصلا فا
نتدب رجل يقال له خالد الدريوشي واخر يقال له سهل بن سلامه ابو حاتم الانصاري من اهل خراسان والتفت
عليهما جماعة من العامه فردوا شرهم وقاتلوهم وقووا عليهم ومنعوهم من العبث في الارض فسادا واستقرت الامور
كما هي وذلك في شعبان ورمضان ولله الحمد والمنه وفي هذه السنه في شوال منها رجع الحسن بن سهل الى بغداد وصالح
الجند وانفصل منصور بن المهدي ومن التف معه من الامرا وفي هذه السنه بايع المامون لعلي الرضا بن موسى الكاظم
بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين الشهيد بن علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنهم ان يكون ولي العهد من
بعده وسماه الرضا من ال محمد صلى الله عليه وطرح لبس السواد ولبس الخضرة والزم جنده بذلك وكتب به الى الافاق
والاقاليم وكان مبايعته له يوم الثلثا لليلتين خلتا من شهر رمضان من سنة احدى ومائتين وذلك ان المامون
راى ان عليا الرضا خير اهل البيت وليس في بني العباس مثله في علمه ودينه فجعله ولي عهده من بعده ذكر
بيعة اهل بغداد لابراهيم بن المهدي لما جا الخبر الى بغداد ان المامون بايع لعلي بن موسى بولاية العهد من بعده
اختلفوا فيما بينهم فمن مجيب ومن مانع وجمهور العباسيين على الامتناع وكان الباعث لهم والقايم في ذلك ابراهيم
ومنصور ابنا المهدي فلما كان يوم الثلثا لخمس بقين من ذي الحجة اظهر العباسيون البيعه لابراهيم بن المهدي
ولقبوه المبارك وكان اسود اللون ومن بعده لابن اخيه اسحق بن موسى بن المهدي وخلعوا المامون فلما
كان يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة ارادوا ان يدعوا للمامون ثم من بعده لابراهيم فقال العامه لا نرضى
الا بابراهيم فقط واختلف الناس واضطربوا فيما بينهم ولم يصلوا الجمعة وصلى الناس فرادى اربع ركعات
وفي هذه السنه افتتح نائب طبرستان جبالها وبلاد البلاذرو والشاذر فذكر ابن حزم ان سليمان الخاسر قال في ذلك
شعرا وقد ذكر ابن الجوزي وغيره ان سليمان توفي قبل ذلك بسنتين فالله اعلم وفي هذه السنه اصاب اهل خراسان
والري واصبهان مجاعة شديدة وعز الطعام جدا وفي هذه السنه تحرك بابك الخرمي واتبعه طوايف من السفله والجهله
وكان يقول بالتناسخ قبحه الله تعالى ولعنه وسياتي ما ال امره اليه وفيها حج بالناس اسحق بن موسى بن عيسى بن موسى
بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وفيها توفي من الاعيان ابو اسامه وحماد بن مسعدة وحماد بن عثمان وعلي بن عاصم
ومحمد بن محمد صاحب ابي السرايا الذي كان قد بايعه اهل الكوفة بعد ابن طباطبا ثم دخلت سنة ثنتين ومائتين
في اول يوم منها بويع لابراهيم بن المهدي بالخلافة ببغداد وخلع المامون فلما كان يوم الجمعه خامس المحرم صعد ابراهيم
بن المهدي بالخلافة المنبر فبايعه الناس ولقب بالمبارك وغلب على الكوفة وارض السواد وطلب منه الجند ارزاقهم
فماطلهم ثم اعطاهم مائتي درهم لكل واحد وكتب لهم بتعويض من ارض السواد فخرجوا لا يمرون بشي الا انتهبوه

صورة الصفحة رقم (٥٦)

نسخة (ظ) الظاهرية

فهرس موضوعات المدخل
إلى البداية والنهاية